
الخير يُتوسم
في كل شيء
هارون يحيى
الله
رسول
محمد

إن الله تعالى الحكيم القوي صاحب القوة الإرادة المطلقة هـــو الذي قدّر للإنسان جميع ما يسمعه من قول وكل ما يصادفه من حوادث منذ اللحظة التي فتح فيها عينيه على العالم. وقد خلق كل ذلك وفق تخطيط محكم وحكمة بالغة، وهذا مصداقا لقوله تعالى:
﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩).
ولذلك فعلى الإنسان أن يخضع خضوعا كاملا لهذا القدر المليء بالحكمة والعلم. والمؤمن الذي يكون قلبه مفعما بالإيمان، ويسلم أمره إلى الله تعالى لن يستسلم أبدا للحزن، ولن يصيبه الخوف ولن يغرق في اليأس.
إن المؤمن لا يليق به أن ينسى التوكل على الله تعالى وينتابه القلق والحزن واليأس والتشاؤم. ومن يكون هذا حاله يشقى في الدنيا ويغفل غفلة كبيرة عن مصيره في الآخرة. وعلى العكس من ذلك، فالمؤمن الصادق، في مواجهة بعض الأحداث التي يكون ظاهرها شر، لا ييأس بل يتوسم فيها الخير ويعلم أن مع العسر يسرا. فالله تعالى بين في الآية ٢١٦ من سورة البقرة أنه ﴿عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾. والمؤمن الذي يدرك هذه الحقيقة يعيش في سعادة متواصلة لا كدر فيها.
إن القدر الذي بينه الله تعالى لا عيب فيه، والمؤمن ينظر إلى ملايين الحوادث المكونة لهذا القدر فلا يرى فيها سوى الحكمة والجمال والكمال.

حول الكاتب



ولد عدنان أوقطار عام ١٩٥٦، وهو يستعمل الاسم المستعار هارون يحيى. ومنذ الثمانيات من القرن الماضي كتب عدداً كبيراً من المؤلفات في مواضيع مختلفة، إيمانية وعلمية وسياسية، إلا جانب ذلك يوجد للكاتب مؤلفات في غاية الأهمية تكشف زيف أتباع نظرية التطور، وتفند ادعاءاتهم، وتفضح الصلات الخفية، بين الداروينية والأيديولوجيات الدّموية.

وهدف المؤلف الرئيسي من وراء أعماله هو إيصال نور القرآن الكريم إلى شتى بقاع العالم، ودفع الناس بذلك إلى التفكير والتفكر في قضايا إيمانية أساسية مثل وجود الله تعالى ووحدانيته، واليوم الآخر، وكذلك كشف الأسس المتهاونة لنظم الجاحدين وسلوكياتهم المنحرفة. وإلى حدّ الآن ترجم للكاتب نحو ٢٥٠ مؤلفاً إلى ٥٧ لغة مختلفة، وهي تحضى باهتمام بالغ من قبل شريحة واسعة من القرّاء. وبإذن الله تعالى سوف تكون كليات هارون يحيى خلال القرن الواحد والعشرين، وسيلة للبلوغ بالإنسان في شتى أنحاء العالم إلى مراتب السكينة والسلام والصدق والعدل والجمال والسعادة التي جاء التعريف بها في القرآن الكريم.


بسم الله الرحمن الرحيم
الله
رسول
محمد



حول المؤلف

يتكون الاسم المستعار للكاتب من "هارون" و "يحيى" في ذكرى موقرة للنبيين اللذين جادلا ضد الكفر والإلحاد، بينما يظهر الخاتم النبوي على الغلاف رمزًا لارتباط المعاني التي تحتويها هذه الكتب بمضمون هذا الخاتم. ويشير هذا الخاتم النبوي إلى أنّ القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية، وأنّ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين. وقد اتخذ الكاتب لنفسه القرآن الكريم والسنة النّبوية دليلاً ومرشدًا، وفي جميع المؤلفات أخذ العهد على نفسه بنسف جميع الأسس التي تقوم عليها النظم الإلحادية وإبطال كل المزاعم التي تقوم عليها الحركات المناهضة للدّين. ويعتبر هذا الخاتم الذي مَهر به كتبه بمثابة إعلانٍ عن أهدافه هذه.

تدور جميع كتب المؤلف حول هدف رئيسي هو تبليغ نور القرآن ورسالته لجميع الناس، وحثهم على الإيمان بوجود الله ووحدانيته واليوم الآخر، وعرض تهافت النظم الإلحادية وفضحها على الملإ.

تحضى كتب هارون يحيى بقبول واهتمام كبيرين في شتى أنحاء العالم؛ من الهند إلى أمريكا، ومن إنكلترا إلى أندونيسيا، ومن بولونيا إلى البوسنة، ومن إسبانيا إلى البرازيل، ومن ماليزيا إلى إيطاليا، ومن فرنسا إلى بلغاريا وروسيا.

ترجمت كُتب المؤلّف إلى العديد من اللّغات الأجنبية، ومن بين تلك اللغات: الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والأوردية والعربية والألبانية والروسية والبوسنية والإويغورية والاندونيسية والمالاوية والبنغالية والصربية والبلغارية والصينية والسواحلية (لغة مستعملة في تنزانيا) ولغة الهوسه (لغة منتشرة في إفريقيا)، ولغة الدّيبولهي (لغة مستخدمة في موريس) والدانماركية والمجرية وغيرها من اللغات. و هناك إقبال كبير على قراءة هذه الكتب بهذه اللغات.

لقد أثبتت هذه المؤلفات جدارتها، ووجدت تقدير كبيرًا في كافة أنحاء العالم. وقد كانت سببًا في هداية كثير من الناس إلى طريق الإيمان وساهمت من جانب آخر في تقوية إيمان كثير من المؤمنين. وكل من يقرأ هذه الكتب ويتأمل فيها يلاحظ بوضوح الحكمة البالغة التي تكمن فيها والسهولة الموجودة بين ثنايا سطورها والصدق الذي يميز أسلوبها والعمق في تناول القضايا العلمية. وما يميّز هذه المؤلفات أيضا سُرعة تأثيرها وضمان نتائجها وعدم القدرة على نقض ما فيها ودحضه. وكل من يقرأ هذه الكتب ويتأمل فيها بعمق لن يكون بإمكانه بعد ذلك



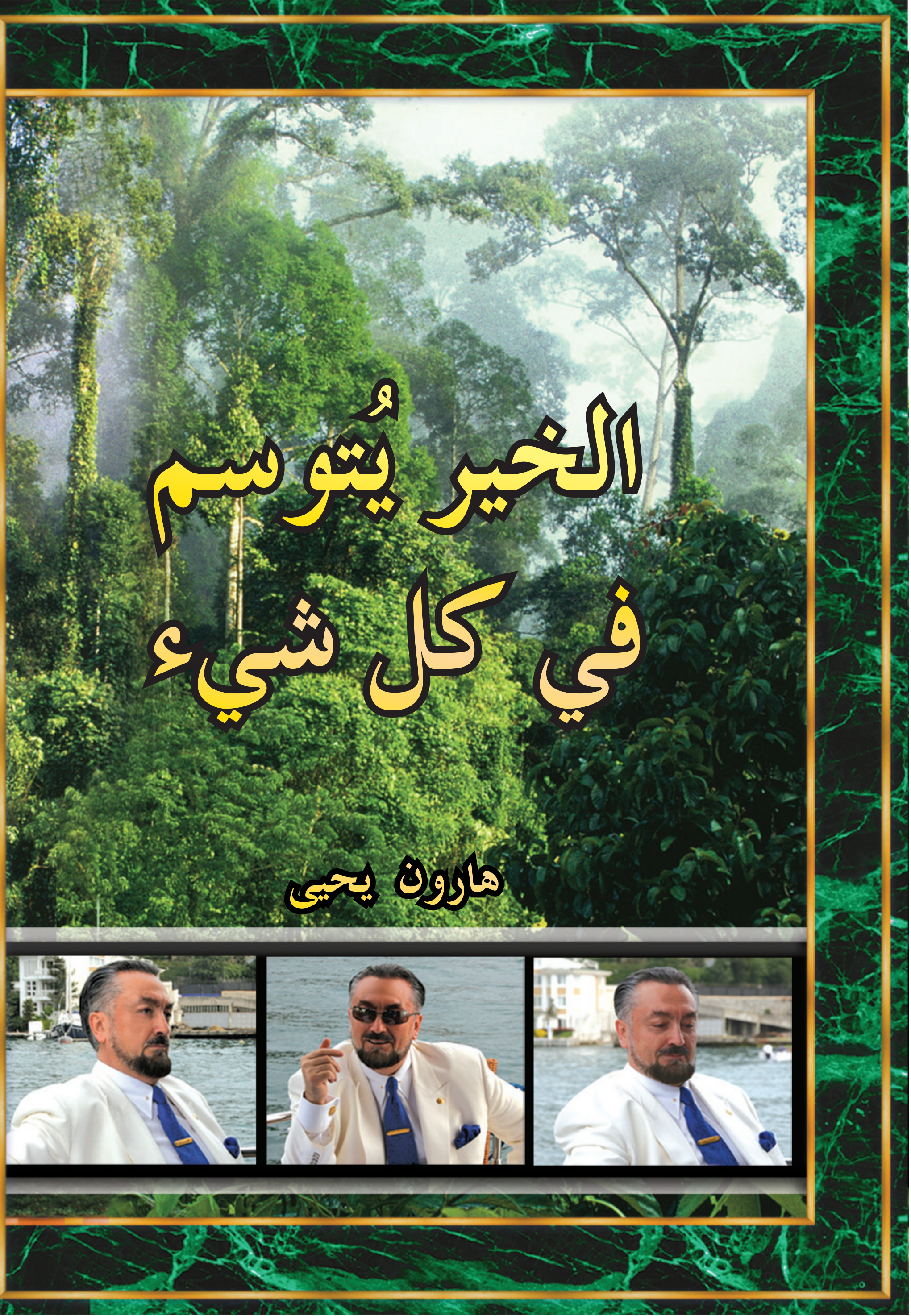
الدّفاع عن الفلسفات المادية والآراء الإلحادية والأفكار المُنحرفة الأخرى.

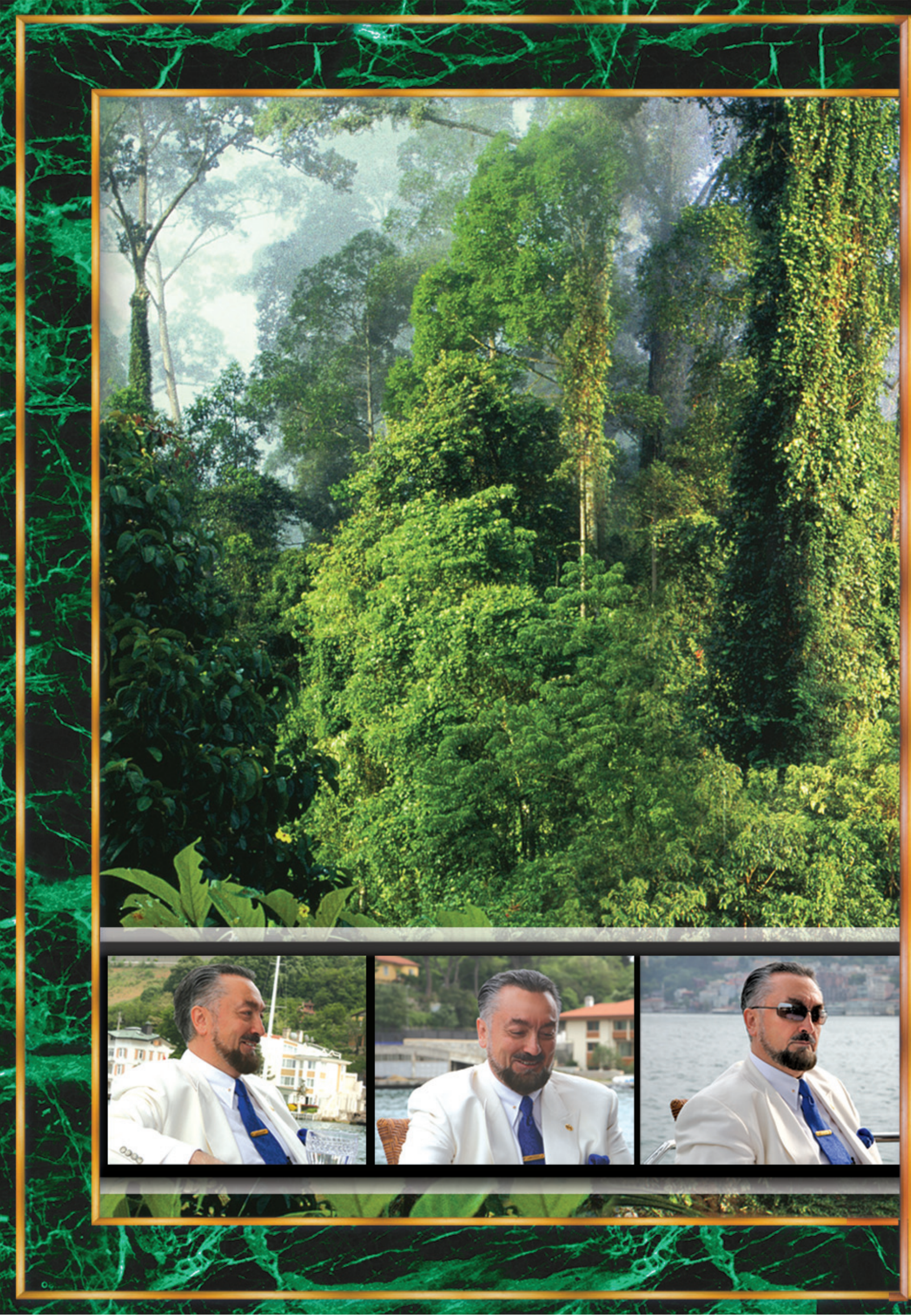
وإذا حدث وأن نافح منافح عن تلك النظريات بعد مطالعة هذه المؤلفات فلن يكون ذلك سوى عن عنادٍ عاطفي لأنّ السّند العلميّ قد تمّ دحضه وإبطاله. ولا شك أن هذه الخصائص نابعة من قوة حكمة القرآن وحُججه الدّامغة. والكاتب لا يسعى من وراء عمله هذا إلى نيل المديح والثناء إنما هدفه وغايته هداية الناس والسير بهم في طريق الإيمان، كما أنّ ليس همّه تحصيل أيّ ربح أو مكسب ماديّ.

وعلى ضوء هذه الحقائق، فإن الذين يساهمون في نشر هذه الكتب ويحثون الناس على قراءتها لتكون وسيلة لهدايتهم هم في الحقيقة يقدمون خدمة للدين لا تقدّر بثمن.

وعلى هذا الأساس، فإنّ العمل على نشر الكتب التي ثبت بالتجربة أنها تشوش الأذهان وتُدخل البلبلة على الأفكار وتزيد من الشّكوك والتردّد ولا تملك تأثيرًا قويّا وحاسمًا في طرد الشبهات من القلوب، يُعتبر مَضيعةً للجهد والوقت. ومن الواضح أن هذه المؤلفات لم تكن لتترك كل هذا التأثير لو كانت تركز على بيان القوة الأدبية للكاتب أكثر من تركيزها على الهدف السامي المتمثل في هداية الناس. ومن لديه أدنى شك في ذلك فيمكنه أن يتحقّق من أن الغاية القصوى هي دحض الإلحاد ونشر أخلاق القرآن من خلال تأثير هذا الجهد وإخلاصه ونجاحه.

يتعين إدراك حقيقة مهمة، وهي أن الظلم والفوضى السائدين اليوم في أنحاء الأرض وما يتعرض له المسلمون من أذى سَببه تحكّم الفكر الإلحادي في شؤون العالم. والطريق الذي يضمن الخلاص من هذا كلّه هو إلحاق الهزيمة بالفكر الإلحادي وبيان حقائق الإيمان و إجلاء الأخلاق القرآنية بحيث يُصبح النّاس قادرين على التمسك بها. وبالنظر إلى حالة العالم وما يُراد له من مزيد جرّه إلى الفساد والشّرور والدمار فإنه من الضروري المُسارعة قدر المستطاع إلى القيام بما هو ضروري، وإلا فقد يُقضى الأمر ولاتَ حين مناص. وخلال القرن الواحد والعشرين، وبإذن الله تعالى سوف تكونُ كليّات هارون يحيى –من خلال نهوضها بهذه المهمّة– الوسيلة للوصول بالنّاس إلى مراتب السكينة والسلام والصدق والعدل والجمال والسعادة التي أوضحها لنا القرآن الكريم.


الخير يُتوسم
في كل شيء
هارون يحيى



إلى القراء الكرام

إن المواضيع الإيمانية الموجودة في جميع كتب المؤلف مشروحة وموضحة في ضوء الآيات القرآنية. وهذه الكتب تدعو الناس جميعًا إلى فهم هذه الآيات والعيش وفقا لتعاليمها. لقد تم شرح جميع المواضيع المتعلقة بآيات الله بحيث لا تبقى هناك أي شبهة أو تردد في ذهن القارئ. إن الأسلوب السلس والسهل والرصين المنبعث من القلب هو الذي يسَّر فهم هذه الكتب من قِبل الجميع صغارا وكبارا، ومن كل فئات المجتمع، بسهولة ودون أي صعوبة، وهو الذي جعل هذه الكتب كتبًا لا تستطيع أن تتركها قبل إتمام قراءتها. وحتى الذين اتخذوا موقفا معارضا للدين يتأثرون بالحقائق المذكورة في هذه الكتب، ولا يستطيعون دحض صحة محتوياتها.

وكما يستطيع القراء قراءة هذا الكتاب والكتب الأخرى للمؤلف على انفراد، فهم يستطيعون قراءتها بشكل جماعي، أو مناقشتها فيما بينهم والتسامر حولها. إن قراءة هذه الكتب بشكل جماعي ونقل كل فرد رأيه وخبرته إلى الآخرين أمر مفيد جدا.

علاوة على هذا، فإن المساهمة في تعريف هذه الكتب — التي لم تؤلَّف إلا لوجه الله تعالى ولمرضاته — ونشرها بين الناس تُعَد خدمة إيمانية كبيرة، لأن الأدلة والبراهين التي يوردها المؤلف في هذه الكتب قوية جدا ومقنعة، لذا كان على كل من يريد خدمة هذا الدين تشويق الآخرين لقراءتها والاستفادة منها.

إننا نأمل أن يتسع وقت القارئ للاطلاع على استعراض الكتب الأخرى، الذي نقدمه في نهاية هذا الكتاب، ليكون على علم بوجود منابع ثرَّة ومصادر غنية من الكتب في المواضيع الإيمانية والسياسية، التي تعد قراءتها مفيدة وممتعة للغاية.

لا ترى في هذه الكتب ما تراه في بعض الكتب الأخرى من رؤى شخصية للمؤلف، ولا ترى شروحا وإيضاحات مستندة إلى مصادر مشبوهة، ولا أي نقص أو قصور في أسلوب الأدب والتوقير الواجب اتخاذه تجاه المفاهيم والمواضيع المقدَّسة، ولا ما يجُر القارئ إلى الحيرة والتردد أو إلى اليأس والقنوط.

لفهرس

مدخل

إذا ألقيت نظرة في صفحات حياتك الماضية سوف ترى أن عشرات السنين التي عشتها لا تعدو أن تكون مجرد دقائق معدودة. إن الأحداث التي اعتقدت أنها مهمة جدا وانتظرتها بشغف كبير أو بانفعال شديد أصبحت كلها مجرد ذكريات سابحة في الزمن. كل ما بقي من هذه الأحداث الدنيوية مجرد معلومات لا أكثر. لكن كل كلمة قلتها، وكل عمل عملته، بل وكل ما جال في ذهنك هو عند الله مسجل محفوظ.

كل إنسان عندما تدركه حقيقة الموت سوف يجد نفسه وجه لوجه أمام شريط أحداث حياته. حياة أصبحت عبارة عن لحظات قليلة وبعض ذكريات متناثرة هي عند الله تعالى مسجلة لحظة بلحظة ودقيقة بدقيقة، وسوف يعرض عليك شريطها كاملا غير منقوص.

فإذا كنت أمضيت عمرك كما أراد الله تعالى ونفذت أوامره وأطعته، وإذا كنت اتقيته و لم تغفل عن ذكره فاعلم أن عاقبتك خير وسلام.

عندما يموت الإنسان يكون في مواجهة خيارين لا ثالث لهما، فإذا أمضى حياته وفقا لما أمره به الله تعالى فقد نجا وفاز، أما إذا كان الأمر غير ذلك فإنه سوف يلقى عذابا مقيما. وما يرضي الله من الأخلاق هو أن يعرف أن كل ما يصيبه هم من عنده سبحانه، وأن يشكره في جميع أحواله

وفي جميع أوقاته، وأن يعيش في هذه الدنيا على يقين بأن كل ما يحدث فيه خير له.

إن رضا الإنسان بكل ما يحدث له وإيمانه بأن في كل شيء خير وشكر الله تعالى في جميع الأطوار والأحوال أمر يسير جدا. وهذه الحقيقة تبين أن الإنسان قد أدرك عظمة الله وقدرته بشكل قاطع. ولذلك فحري بالإنسان أن يعرف الله تعالى في هذه الدنيا التي يعيش فيها وحري به أن يرى عظمته في مخلوقاته، وبالتالي فحري به أن يجلّه ويوقّره.

إن كل ما يراه الإنسان منذ اللحظة الأولى التي يفتح فيها عينيه على العالم، وكل كلمة يسمعها، وكل شيء عظيما كان أو حقيرًا هو من خلق الله تعالى... فالله هو القوي العليم العدل الحكيم.

ومثلما بينت الآية الكريمة في سورة القمر:﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾، فإن الله عز وجل خلق كل شيء وفق نظام محدد وتدبير حكيم، والإنسان يبقى عاجزا تمام العجز أمام قدرة الله وعظمته.

الإنسان، لكي يعيش ويستمر في الحياة، محتاج إلى نعم الله وفضائله. وضروري أن يدرك الإنسان أن الله هو الذي منحه هذه النعم وهذه الفضائل، ولذلك فحاجة الإنسان كبيرة جدا لكي يعلن تسليمه وخضوعه لعظمته سبحانه. على الإنسان أن يعرف أن كل ما يعيشه في حياته هو من تقدير الله المتحكم في الكون كله وفي الموجودات كلها، وعليه أن يعرف أن الله تعالى يرى ما لا يراه هو ويعرف ما لا يعرفه، وأنه يسمع الأصوات التي لا يسمعها هو، وأن الله محيط بأخبار الأولين والآخرين وأخبار الماضي والمستقبل، وعلى هذا النحو يدرك أن الله خلق جميع الحوادث بحكمة بالغة

وجعل فيها الخير كلّ الخير.

اليقين بهذه الحقائق يجعل الإنسان يشكر خالقه في كل حين، ويكسبه أخلاقا عالية. وبتعبير آخر، فالإنسان الذي يخالط شغاف قلبه هذا النوع من الإيمان يصبح ينظر إلى كل صوت يسمعه وإلى كل منظر يراه، وإلى كل حادثة تمر به، وباختصار يصبح ينظر إلى جميع أطوار حياته بعين"الخير"، وبذلك يفهم حياته على أكمل وجه وأسلمه.

لقد بينت الآية الكريمة في سورة الإنسان: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾ (الإنسان: 3) أن الإنسان يختار أحد طريقين، والمؤمن يختار الطريق الصحيح فينال العاقبة الحسنى، ويعيش حياة طيبة وتكون عاقبته الجنة بإذن الله تعالى.

وهدف هذا الكتاب أن يبين للناس كيف يعيشون بهذه النظرة المتفائلة، التي تجعل من الحياة واحة للخير والأمل. ويهدف الكتاب أيضا إلى تذكيرهم لكي ينظروا إلى الحياة والمستقبل بهذه النظرة التي تجلب الخير في العاجلة، وتزيح الغمامة التي تحول دونهم ودون الوصول إلى هذه الغايات الطيبة. وبالتالي تقيهم من العيش في حياة البؤس والإحباط.

هذا الكتاب يدعو الإنسان إلى أن يدرك هذه الحقيقة، لا بلسانه فقط بل بقلبه كذلك، فيعلن أن "في كل شيء خيرًا"، والكتاب ينبه الإنسان إلى أن لا يتعامل مع الصعوبات التي تعترضه بنفسية التحمل عن مضض بل بنفسية الرضا والتسليم والصبر الجميل. هذا الكتاب يذكر جميع الناس أن القدر خُلق بدون نقص أو قصور، ويدعوهم إلى التسليم لقدر الله العظيم الذي أحسن كل شيء خلقه.

إدراك الخير في كل ما يحدث

في الواقع إنّ عبارة "في كل أمر خير" جملة شائعة كثيرا في المجتمع. ففي مسار حياتهم اليومية عادة ما يردد الناسُ كلمات من قبيل "**لعلّ هذا الأمر خير لنا**" أو "**لعل هذا الأمر نعمة من الله**".

لكن الناس عامة ينطقون بهذه الجمل دون أن يفهموا مدلولها الحقيقي, أو هم يفعلون ذلك لمجرد اتباعهم عرفا اجتماعيا بلا معنى. وأكثرهم لا ينجح في فهم معناها الأساسي, أوحتى كيفية تطبيق فهمها على حياتهم اليومية. فالأمر الجوهري أن هؤلاء لا يدركون أن تلك الجمل هي أكثر من مجرد كلمات تطلقها أفواهم بل هي تكشف لنا ببصيرة باطن أحداثنا اليومية.

إن الحقيقة في رؤية الخير في كل حدث مهما كانت طبيعته, إيجابيا أم سلبيا، وهذا إنما ينبع من ميزة أخلاقية مهمة ناتجة من إخلاص الإيمان بالله تعالى. ولا شك أنّ التمسك بهذه الحقيقة مهم جدا في توجيه الواحد منا ليس لخير هذه الدنيا فحسب, ولكن لنيل نعيم الآخرة كذلك.

إنّ الشعور بالرّضا عن كل ما يصيبنا في مسار هذه الحياة هو

دليل قاطع على الفهم الحقيقي لمعنى الإيمان. وفي المقابل، فعجزنا عن رؤية الخير فيما يحدث لنا يجعلنا مشحونين خوفا وجزعا وقنوطا وأسى وانفعالية، وذلك دليل على نقص في صدق هذا الإيمان. إنّ هذا التشويش يجب إزالته فورا, لنلبي بذلك نداء البهجة المنبثق من الإيمان الصحيح كجزء أساسي في هذه الحياة. وإن المؤمن يعلم تمام العلم أن كل ما يبدو للوهلة الأولى حدثا غير إيجابي, حتى لو كان بسبب خطأ ارتكبه هو بنفسه, سوف يعود عليه في النهاية بالفائدة.

فهو إن قال "يا لسوء حظي", "يا للمصيبة", "لو أن...."، فسيقولها فقط ليستخلص العبر من هذه التجربة. أي بمعنى آخر, إن المؤمن يعلم أن هناك خيرا في كل ما يحدث له, فهو يتعلم من أخطائه و يسعى لتصحيحها. وحتى إن وقع في الخطأ نفسه ثانية, فانه سيبقى مدركا أن ما وقع فهو لغاية. وبكل بساطة يقرر أن "يتصرف بما هو أصح في المرة القادمة". من ناحية أخرى, حتى إذا تكرر ذلك الحدث مرات عديدة, على المسلم أن يبقى مدركا أنّ في المحصلة خيرا له. فهذا هو ناموس الله الذي لا يتغير.

عند إدراكنا أن الله ما خلق شيئا إلا لخير مؤكد وهدف محدد, عندئذ فقط يجد القلب الأمن و السلام. والتمسك بهذه الحقيقة نعمة عظيمة للمؤمن. والإنسان البعيد عن الإسلام يعاني من العذاب المستمر؛ فهو يعيش في خوف دائم وقلق لا ينتهي. بينما –على العكس من ذلك– يدرك المؤمن حقيقة أن هناك هدفا وغاية ما من وراء إحداث الله تعالى لكل الأمر.

ومن هنا, فعندما لا نحسم أمرنا؛ ونبقى نعاني من القلق المستمر للترقب الدائم لكل من الخير والشر, فان ذلك قد يصبح عائقا للمؤمن في بلوغ الآخرة. فحجته أنه يجهل تلك الحقيقة الواضحة والبسيطة, بسبب عدم اكتراثه وكسله, وهذا يسبب له العذاب في الدنيا والآخرة. لذا علينا أن نتذكر دوما أن قضاء الله وقدره هو حتما خال من النقائص والعيوب. والإنسان إذا ما عزم على إدراك الخير في كل أمره, فإنه لن يجد سوى النّعم, وتلك هي الغاية المخبوءة في كل تلك الأحداث المتشابكة من حوله. وبالرغم من انشغاله بأمور حياته, إلا أنه بفضل قوة إيمانه واستنارته بالحكمة والضمير الحي لن يسمح للشيطان بأن يغويه بحيله. فمهما نزل به من أمر، وفي أي مكان و زمان, لن ينسى أن هناك خيرا مخبوءا وراءه. وبالرغم من عدم رؤيته لهذا الخير في الحال, إلا أن ما يهمه فعلا, هو إدراكه وجود هدف نهائي من هذا الأمر.

بسبب تهوّرهم وسرعة حكمهم على الأمور, فإن الناس في بعض الأحيان لا يملكون الصبر الكافي ليتبينوا الخير في أمورهم. ونتيجة لذلك, قد يصبحون عدائيين يصرون على الشيء بالرغم من كونه ضد الفائدة التي يرجونها. وقد بين القرآن الكريم هذه الحقيقة: ﴿ **وَ يَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً** ﴾ (سورة الإسراء :11)

مع ذلك, على الإنسان أن يستبسل ليكتشف الخير, ويدرك الهدف الإلهي من كل واقعة تنزل به, بدلا من الإلحاح على أمر يعتبره بمفهومه إيجابيا, ولا يطيق صبرا في الحصول عليه. فمثلا, قد يناضل إنسان للإحراز

على وضع مالي أفضل في هذه الحياة, وهذا التغيير قد لا يحدث أبدا. والإنسان الذي يعتبر أن هذا الوضع محنة فهو مخطئ. بالطبع يستطيع الإنسان أن يدع الله أن يرزقه المال الوفير لينفقه في سبيل الله مثلا، ولكنه عليه أن يعلم أنه إن لم يحصل على هذه الأمنية, فلابد وأن يكون لسبب ما. فمن الممكن أن اكتساب الثراء قبل إحراز النضوج الروحي قد يحول هذا الإنسان إلى فريسة سهلة للشيطان. وهناك الأسباب المشابهة العديدة الأخرى لكل هدف إلهي مخبوء وراء الحدث, وقد لا يُدرك الكثير منها في الحال, أو قد لا تنجلي حكمة ذلك إلاّ في الآخرة. فمثلا, رجل أعمال فاته اجتماع لطالما اعتبره خطوة مهمة في مهنته. ولكن, فيما لو ذهب الرجل إلى ذلك الاجتماع كان سيصاب بحادث سير أو كانت ستتحطم به الطائرة في إحدى رحلاته الجوية.

لا يوجد من هو محصن من الوقوع في هذه الأحداث, إذا فانه ليس من الأمر غير الاعتيادي أن نتوسم الخير في شيء يُظن به السّوء للوهلة الأولى. ومع ذلك, يحتاج كلّ واحد منا أن يعرف أنه قد لا يستطيع دائما الإمساك بالقصد من الحدث الذي بدا له سلبيا. والسبب كما قلنا، أننا قد لا نملك الفرصة لنشهد تلك النتيجة الإيجابية. فقد يظهر الله ذاك القصد الإلهي فقط في الآخرة. ولهذا السبب, فإن ما يجب على الإنسان الذي خضع لقدر الله و وضع ثقته فيه هو الرضى بكل أمر– مهما كان– مع الاستعداد التام للاعتراف بوجود الخير فيه وأن يكون حامدا لله عليه.

من الضروري التنبيه إلى أنّ "إدراك الخير في كل شيء" لا يقتضي

تجاهل حقيقة تلك الأحداث والتظاهر بعدم حدوثها, أو أن نبالغ في الشعور بالمثالية. بل على العكس تماما, فالمؤمن مكلف بالتصرف المناسب واللجوء إلى كل الطرق اللازمة لحل أي مشكلة.

إنّ تسليم المؤمن لهذا الحدث, يجب أن لا يلتبس مع نهج أولئك الذين يبقون غير مكترثين لكل ما يحدث حولهم متفائلين بلا واقعية، بسبب قصر فهمهم للموضوع. وهؤلاء عادة ما يوصفــون بـــ"أصحاب النظارات الوردية". فهم يفشلون في اتخاذ القرارات العقلانية, أو حتى تطبيقها على أرض الواقع. وهؤلاء غير واعين, وهم غارقون في تفاؤل طوباويّ, ولذلك لا يسعون للبحث عن حلول لمشكلاتهم. فمثلا, إذا حدث وأصيب شخص بمرض يستدعي الاهتمام, فانّ حالته مع الوقت ستتدهور للدرجة التي يصبح معها مرضه مميتا, إذا أهمل أخذ الدواء المناسب. ومثال ذلك أيضا من لا يرى ضرورة للاحتياط في الحفاظ على حاجياته فيتركها سائبة, مع أنه سبق أن سرق. فهو معرض ليصبح مرة أخرى ضحية لحدث مماثل.

دون أدنى شك, فهذا النهج هو نهج بعيد من مفهوم " التوكل على الله" و "إدراك الخير فـــي كل أمر". فهذه التصرفات غير مبالية ومستهترة. و في المقابل, على المؤمنين أن يبذلوا أقصى ما بوسعهم لعلاج الوضع بطريقة عملية. فالسلوك الحسن الذي يتبعونه, هو أساسا شكل من أشكال "العبادة", وذلك لأنهم في خضم انغماسهم في هذه الأوضاع,عقولهم مشغولة بدوام تذكر الحقيقة، وهي أن الله تعالى قدر وما شاء فعل.

في القرآن الكريم, يقص الله تعالى علينا نماذج من قصص الأنبياء والمؤمنين الصادقين الذين أدركوا هذه الحقيقة, وعلى المؤمنين بدورهم أن يسعوا للسير على طريقهم. فالأسلوب الذي ردّ به سيدنا هود علية السلام على قومه, موضحا لهم خضوعه التام لله تعالى وثقته الثابتة به, بالرغم من تهديداتهم له, نموذج ناصع من هذه الأمثلة.

قال تعالى: ﴿ **قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ*إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ *مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونَ *إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَ رَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَ لاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ** ﴾ (سورة هود: 53-57)

نظرة المجتمع الجاهلي إلى الأحداث

يميل الناس بصفة عامة إلى تقسيم الأحداث على أنها جيدة و سيئة. هذا التقسيم غالبا ما يعتمد على عاداتهم أو ميولهم. كما أن ردود أفعالهم على تلك الأحداث تتبدل حسب خطورة و هيئة ذلك الحدث؛ ومع ذلك, فما يشعرون به و ما يواجهونه في النهاية, يكون محكوما بتقاليدهم الاجتماعية.

كل واحد منا في الغالب لديه بقايا من أحلام الطفولة, حتى في حياته المتقدمة, مع أن هذه الخطط قد لا تتحقق دوما كما توقعها أو خطط لها الواحد منا. فنحن دائما عرضة لأحداث غير متوقعة في حياتنا, وحدث كهذا غير متوقع, في لحظة, يمكن أن يلقي بحياتنا في فوضى تامة. وبينما يكون الواحد منا منكبا على سير حياته المعتادة, قد يواجه بسلسة تغييرات, قد تظهر للوهلة الأولى على أنها سلبية. فمثلا, يمكن لإنسان معافى أن يستسلم لمرض مميت, أو يفقد قدرته على الحركة في أحد الحوادث. أيضا, فقد يفقد رجل ثريّ كل ثروته فجأة.

إنّ ردود فعل الناس على هذا التغير في دولاب الأحداث يختلف اختلافا كبيرا. فردة فعلهم تكون جيدة طالما أن هذا الحدث مرغوبٌ

فيه. بينما عندما يواجهون بما هو غير متوقع يميلون للشعور بخيبة الأمل, أو حتى الغضب. و حسب أهمية تعلقهم بتلك الأحداث, ومحصلتها النهائية, فانّ غضبهم قد يصبح شديدا جدا. إنّ هذا الاتّجاه كثيرا ما يشيع في المجتمعات التي ينتشر فيها الجهل.

وهناك البعض من هؤلاء يقولون عند حدوث ما يخيّب أملهم " لا بدّ وأن يكون هناك خير في هذا". ولكنها مجرّد كلمات يتفوهون بها دون أدنى فهم لمعناها الحقيقي, إنما فقط لاتباعهم عرفا اجتماعيا.

وهناك مجموعة أخرى من الناس الذين هم على استعداد لينظروا في حقيقة الهدف الإلهي وراء أحداث بسيطة. ولكن عندما يُواجهون بأحداث جسيمة قد تعود عليهم بالضرر، فإنهم ينسون مثل هذا العزم أو النية. فمثلا، من الممكن لشخص ما أن لا ينزعج لتعطل محرك سيارته وهو في طريقه إلى العمل, ويبدي استعداده لتفهم الخير الممكن في ذلك. ولكن, إذا ما كان تأخره عن العمل يثير غضب مديره ويعرضه للفصل من عمله, عندئذ يكون ذلك سببا كافيا للاحتجاج. وقد يتصرف بأسلوب شبيه بهذا فيما لو فقد قطعة ثمينة من المجوهرات بدلا من ساعة يد زهيدة الثمن. وكما تشير هذه الأمثلة, فهناك أحداث ثانوية معينة, يتفاعل معها الناس بعقلانية, أو يولون استعدادهم لفهم الخير منها؛ بينما الأحداث الأكثر إيلاما تسوقهم ليثبتوا تهورهم وغضبهم.

وبعض الناس يطلقون هذه العبارات بهدف البحث عن المواساة, دون أن يدركوا حقا المدلول الصحيح لــ "توسّم الخير في كل شيء". وعلى هذا النحو, فهم يؤمنون بكونه طريقة لمد يد العون للمهمومين,

لفرد من العائلة خسر مشروعا تجاريا مثلا, أو لصديق رسب في امتحان. ولكن,عندما تكون مصالحهم في دائرة الخطر, عندها لا يبدون أدنى داع لرؤية "الخير" فيه, كاشفين بذلك الستار عن قمة جهلهم.

إنّ القصور في رؤية الخير فيما يمر على الفرد من أحداث, ينبع من القصور في إيمانه. فقصوره في إدراك أن الله تعالى هو الذي سبق وقدر كل حدث في حياة كلّ منا, وأن كل شيء إنّما يحدث وفقا لقدر معين قد سبق إعداده, وأنّ هذه الحياة الدنيا ليست سوى امتحان, هو الذي يحجب العين عن رؤية الخير وإدراكه في ما يحدث لنا.

في الجزء التالي, سوف نستطلع هذا المعنى. وهو, أن نؤمن بأنّ هناك خيرا في كل ما يحدث لنا, ونستطلع الحقائق المتعلقة بهذا الأمر.

كيف نُدرك الخير فيما يحدث؟

إدراك أن الله هو الذي قدر كل شيء بكل جزئياته...

إنّ معظم الناس يفرحون عندما تحدث الأشياء وفقا لرغباتهم, ولكنهم سرعان ما يثارون للحدث الصغير الذي لا يوافق هواهم. لكن على المؤمن أن لا يميل لهذه المشاعر. ففي القرآن الكريم, يوضح الله سبحانه و تعالى ما يسرنا, وهو أنّه قد وضع الخير لعباده الصادقين في كل أمر, فما من شيء يمكن أن يهمهم أو يزعجهم.

والمدرك لهذه الحقيقة في صميم قلبه, يستطيع أن يكون راضيا بكل ما يواجهه من أحداث, ويرى النعمة من ورائها.

البعض, لا يأبهون حتى لمجرد التفكير في كيفية خلقهم و سببه. مع أن ضميرهم يدلّهم على أن لهذا الكون المدهش المتسق خالقا عظيما, إلا أن حبهم المبالغ فيه لهذه الحياة الدنيا, أو عدم رغبتهم في مواجهة الحقيقة, يجعلهم ينكرون حقيقة وجود الخالق و العياذ بالله ويتجاهلون حقيقة أن كلّ واقعة في حياتهم قد قدرت ضمن خطة وهدف, بل يعزونها لمفهوم خاطئ, وهو الحظ أو المصادفة. فهذه نظرة تعيق صاحبها عن رؤية الخير في الأحداث و استخلاص العبر منها.

وهناك البعض الآخر, يدركون وجود الله تعالى, ويوقنون أنه هو خالق هذا الكون، ويعترفون بحقيقة أن الله هو مُنزل الغيث وهو الذي يأتي بالشمس من المشرق. فهم مقرين أنه لا مسبب لكل ذلك إلا الله, ولكن عندما نصل إلى الأحداث التي تمر بهم في حياتهم, وإلى التفاصيل الصغيرة التي تشكل جزءا من المشهد اليومي الاعتيادي يجدون صعوبة في الاعتقاد بخضوعها لله تعالى. و مع ذلك, فالله هو الذي يقضي بدخول لص إلى بيت أحدنا ليلا, أو عائق يوقعنا أرضا, وهو الذي ينبت أرضًا ويثمرها ويجعل أخرى جدباء قاحلة, وهو الذي يكتب لصفقة أن تكون ناجحة, أو لقدر أن يُنسى على الموقد فيحترق ما فيه. كل حدث يقع ضمن حكمة الله اللانهائية, في خطة سامية. فقطرة الوحل التي تلطخ سروال أحدنا, والثقب الذي يحدث في إطار عجلة السيارة, والبثور الظاهرة على الوجه, والاعتلال في الصحة, أو أي شيء آخر لا نرغب في حدوثه, كلها أمور متداخلة في حياة الواحد منا ضمن خطة محددة.

لا يوجد أبدا ما هو خارج عن إرادة الله تعالى في كل ما يصيب الإنسان في هذه الدنيا, منذ اللحظة التي يفتح فيها عينية. فكل الكائنات جميعا خلقها الله تعالى, الواحد الأحد المسيطر على هذا الكون. إن كل ما خلق الله كامل وتام ومليء بالحكم والأهداف, وهو جزء من القضاء والقدر الذي خلقه الله تعالى؛ لا يجب على أيّ منا أن يميز بين الوقائع بقوله جيدة لبعضها وسيئة للبعض الآخر. فما يجب على الإنسان هو أن يدرك ويقدر الكمال والمثالية في جميع الأحداث, ويؤمن بكل ثقة بأن الخير فيها, وأن يبقى واعيا بحقيقة أن الله بحكمته المطلقة, رتب كل

شيء ليؤدي في النهاية إلى النتائج المثلى. حقا, إنّ كل من يؤمن ويسلم بالخير في كل ما يحدث, تصبح له الدنيا جزءا من نعيم لا ينتهي.

في القرآن الكريم, ينبهنا الله إلى تلك الحقيقة التي ذكرناها في هذه الصفحات، لذا فإن القصور في تذكر أن كل شيء هو وفق قدر سماوي يعتبرا خسرانًا مبينا للمؤمن. وإنّ القضاء المقدر من الله تعالى بديع , فهو يصيب الإنسان كما سبق وقدره الله تماما. فالإنسان العادي يفهم الإيمان بالقضاء والقدر كطريقة فقط " للمواساة في أوقات المحن". بينما المؤمن يحقق الفهم الصحيح للقضاء والقدر, متفهما تماما أنه المنهاج الوحيد المثالي المرسوم له بدقة.

القضاء و القدر هو ذلك البرنامج الذي لا تشوبه شائبة الذي وضع ليعدّ الإنسان للفردوس. فهو مفعم بالخير كما أنه أعد لغاية إلهية, فكل ضائقة تمر بالمؤمن في هذه الدنيا, ستكون مصدر سعادة و نعمة و سلام لا نهائي في الآخرة. والآية الكريمة: ﴿ **إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** ﴾ (سورة الشرح: 6) تشدنا إلى هذه الحقيقة؛ إنّ الصبر الذي يبديه المؤمن لما يصيبه من قضاء وقدر, قد سبق و قدر له معها الجزاء الحسن في الآخرة.

قد يحدث مع الأيام أن المؤمن يصبح قلقا لبعض ما يحدث له, والسبب لما يشعر به هو قصوره في تذكر أن هذا الحدث بالذات هو جزء من قدره الذي خلقه الله تعالى خاصا به. إلا أنه, سيهدأ و يرتاح عندما يُذَكّرُ بهدف الله تعالى من خلق مثل هذا الحدث. لذا على المؤمن أن يتعلم أن يتذكر دوما أنّ كل شيء قد قدر سلفا, وأن يذكر غيره

بذلك. عليه أن يصبر في وجه تلك الأحداث التي قدرها الله له. وهناك أسرار غير محدودة وراء الأحداث, وعلى المؤمن أن يتوكل على الله تعالى ويكافح لإدراك هذه الأسرار. والذي يبذل ما في وسعه لتفهم تلك الأسباب, سيكون, بإذن الله تعالى, من الفائزين في النهاية. ولكن ينبغي أن نفهم أنه قد لا يمكنه دائما إدراك أسباب هذه الأحداث وأسرارها. وعليه أن يبقى واثقا, أن ما يحدث من أمر هو بالتأكيد لخير وغاية.

إدراك حقيقة أن كل مخلوق, حيا كان أو غير حي, خاضع لقدر معين...

القدر هو علم الله التام بكل الأحداث الماضية والقادمة, وكأنها لحظة واحدة. وهذا يظهر سلطة الله المطلقة على جميع الكائنات والأحداث. فالناس لا يستطيعون أن يدركوا حدثا معينا إلا عندما يعاينوه. ولكن الله تعالى يعلم كل الأحداث قبل حدوثها. فبالنسبة إلى الله تعالى, الماضي والحاضر والمستقبل أمر واحدا, فالزمن كله خاضع لعلم الله تعالى فهو خالقه وموجده.

وكما تبين الآية الكريمة أيضا: ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾ (سورة القمر: 49)، فكل شيء في هذا العالم له دور في هذا القدر. وأغلب الناس لا يوقنون يقينا صادقًا بطبيعة القدر, وبالتالي, يفشلون في فهم قدرة الله اللانهائية الكامنة وراء هذا النظام المتناسق الكامل. والبعض يعتبر أن القضاء والقدر يشمل فقط بني الإنسان. بينما في الحقيقة, كل شيء في هذا الكون, ابتداء من الأثاث الذي في بيتك, إلى الحصاة الملقاة

في الطريق, أو تلك القشة اليابسة, وقطعة الفاكهة أو العلبة الموضوعة على رف متجر, كلها جزء من القدر الذي سبق وحدده الله تعالى. إنّ مصير كل شيء مما خلق الله تعالى قد قدر في حكمته تعالى المطلقة.

إنّ كل حدث يراه الإنسان, وكل صوت يسمعه, له دور في هذه الحياة حسب الحاجة إليه، فالحياة وحدة متناسقة كل شيء فيها بنظام. فليس ثمة حدث, سواء كان أساسيا أم ثانويا, يحدث في هذا الكون بالمصادفة. فما من وردة تزهر أو تذبل بمجرد المصادفة. وما من إنسان يبعث إلى الحياة أو يموت بمحض المصادفة. وما من رجل يصبح عليلا لخطأ, ولا حتى عندما يتطور مرضه لوضع غير قابل للسيطرة. ففي كل من تلك الحالات, أعد الله تعالى هذه الأحداث خصيصا وقدرها منذ اللحظة التي أوجد الموجودات. إنّ كل كائن كان, في أعماق الأرض أو في المحيطات, وكل ورقة تسقط من مكانها, كلها تحدث طوعا للقدر. وكما يقول الله تعالى: ﴿ **وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَ يَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَ الْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** ﴾ (سورة الأنعام: 59)

لكن الناس عامة غير مدركين لحقيقة أن كل لحظة من حياتهم قد قدرها الله تعالى, فالبعض لم يتفكروا يوما كيف خلقوا, أو كيف أن كل هذه النعم التي يعيشون بها قد أوجدت. والبعض, بالرغم من معرفتهم بأن الله هو خالق الحياة والموت, يؤمنون بأن المصادفة هي وراء تلك الأحداث الثانوية الصغيرة. غير أن الله تعالى في القرآن الكريم, أخبرنا

بأن أعمالنا بتفاصيلها مهما صغرت قد قدرها الله تعالى بحكمته المطلقة, وطبقا لهدف إلهي، قال تعالى: **"مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾** (سورة الحديد: 22).

إنه من الضروري أن يعي الإنسان هذه الحقيقة. ولأن مصير كل شيء في هذا الكون معلوم لله تعالى, العليم الحكيم, فهذا يعني أنّ كل جزئية وضعت بإتقان مطلق ولهدف. إن الإنسان الذي يحقق الفهم التام لهذه الحقيقة سينعم بالسعادة في كل لحظة من حياته؛ سواء منها ما كان حسنا أو ما بدا له منها سيئا. وسبب ذلك هو أن عباده المؤمنين الصادقين نجحوا في إدراك أن الله هو الذي أوجد قضاءهم و قدرهم دون نقص أو عيب. فهم يعرفون أنه من الجهل بمكان أن ينظروا إلى أمر على أنه مكروه بينما لا بد وأن يكون له غاية في حساب الله تعالى. هذا الفهم العميق لتلك الحقيقة يمكنهم من تبين النعم والبركات في جميع الأشياء التي تحدث.

إنّ الاعتقاد بأن ما يمر به الواحد منا, ليس من خلق الله تعالى, بل الاعتقاد أن أحدا أو شيئا آخر ساهم في حدوثه إنما يدل على قصور في إدراك ماهية القضاء والقدر. وكل ما لا يبدو متفقا مع رغباتنا هو, في الواقع, "درس في القضاء والقدر". وعلى كل إنسان أن ينطلق ليدرك الخير والغاية الإلهية في الأحداث بكل ما أوتي من عقل وحكمة. فالناس يميلون دائما إلى تركيز الاهتمام على كل ما يبدو سلبيا ويعتبرونه "محنة", بالرغم من وجود خير وهدف في ما قد يبدو في ظاهره "محنة". فهي

"محنة " فقط لأننا اخترنا أن ننظر إليها كذلك ؛ ففي الواقع, هي أفضل ما قد يحدث لنا, لأنها الأمر الذي قدّر لنا.

لو أن الله تعالى بين الخير و الغاية في الأحداث التي تبدو سلبية ,أو المشاكل التي تقلق و تغضب الناس ,لكانوا سيتفهمون كم كانت خيبة أملهم بلا معنى. و بإدراك النعمة و البركة في كل الأمور ,فالإنسان المؤمن بالمقابل يشعر بالبهجة لا بالقلق . فالقضية إذن , أن ما يتحتم على المرء عمله هو أن يسعى للتعرف على الخير و المنافع الكامنة في الحدث, والتي هي في الحقيقة جزء من الغاية من خلق الله لذلك الحدث ,وأن يشعر بالامتنان لما تجلبه له هذه النظرة من فائدة.

إدراك أن الشّر قد يكون في أحداث ظاهرها خير وأن الخير قد يكون في أحداث ظاهرها شرّ ...

في ما مضى, أكدنا على أن الله تعالى الحكيم، يخلق كل حدث وفقا لخطة محددة. ومن هنا, فإن موضوعا آخر يستحق أن نخصه بالنظر؛ وهو أن الله وحده يعلم الأحداث المناسبة والمواتية من غيرها. فحكمة الله تعالى مطلقة, بينما نظر البشر محدود, فالبشر لا يستطيعون أن يروا سوى المظهر الخارجي للأحداث, ويعتمدون فقط على إدراكهم المحدود للحكم عليها. فمعلوماتهم أو إدراكهم غير الكافي, في بعض الأحيان, قد يجعلهم يكرهون شيئا بينما هو خير لهم, ويحبون شيئا بينما هو شر لهم. إذن, على المؤمن لكي يتمكن من تمييز الخير, أن يضع ثقته في حكمة الله المطلقة, واثقا من أن هناك خيرا في كل ما يحدث له.

يقول الله تعالى: "**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ (سورة البقرة :216).

يعلمنا الله تعالى هنا, أن حدثا يعتبره المرء منا خيرا قد لا يسبب له إلا خيبة الأمل, في هذه الحياة الدنيا و في الآخرة. وفي المقابل, فما يسعى بحماس لتجنبه, معتقدا ضرره, قد يكون سببا للسعادة والخير. فتقدير أي حدث فعليا, إنما هو علم لله وحده. فكل شيء مهما بدا خيرا أو شرا, يحدث بأمر الله تعالى. فما يصيبنا إلا ما كتبه وأراده الله لنا. و يذكرنا الله تعالى بهذه الحقيقة كما يلي: ﴿ **وَإِنْ يُمْسِسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ (سورة يونس: 107).

إذن, فما يصيبنا في هذه الحياة, مهما بدا خيرا أو شرا, هو في الحقيقة خير, إذ أنه ما قدره خالقنا لنا. وكما ذكرنا سابقا, فإن الذي قد قضى بالحدث على هذا النحو, ليس إنسان مقيد بمكان وزمان, بل هو الله تعالى, الذي يعلو على الزمان والمكان, خالق الإنسان وخالق الزمان والمكان أيضا. (ولمزيد من المعلومات أنظر كتاب: "اللازمان وحقيقة القدر" لهارون يحيى).

في كلّ شيءٍ خير للمؤمنين

كل واحد منا يمر بأوقات صعبة في حياته. وهذه الصعاب تحبط وتقلق أو تزعج غالبية من هم بعيدون عن الأخلاق الموصوفة في القرآن. لهذا, فهم سرعان ما يصبحون قلقي البال, مضطربين ومتوترين. ولأنهم لا يؤمنون بالمثالية الكامنة في القضاء المقدر من الله تعالى, فهم لا يبحثون عن النعمة أو الخير في ما يصيبهم.

وفي الحقيقة, ففقدانهم للإيمان، يجعلهم يشعرون أنّ كل لحظة تنقضي تسير ضدهم. وبهذه الحالة, يصبحون مثقلين تحت وطأة الهم والقلق, وهكذا يمضون في سير حياتهم.

بينما المؤمنون, يعلمون أن الصعاب إنما تأتي من الله تعالى ليُختبر بها الإنسان. فهم يفهمون جيدا أنّ هذه الصعاب طريقة مثلى في تمييز المؤمنين الصادقين من "هؤلاء الذين في قلوبهم مرض", الذين هم غير صادقين في إيمانهم. و الله تعالى يذكر ذلك بكل وضوح في القرآن الكريم, ويؤكد أنه سيختبر المؤمنين ليمحّص الصادقين منهم: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَم اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَم الصَّابِرِينَ** ﴾ (سورة آل عمران:142).

وقال تعالى: ﴿ **مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْه حَتَّى يَميزَ الْخَبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ مَا كَانَ اللهُ لِيُطْلعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَ لَكنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِه مَنْ يَشَاءُ فَآمنُوا بِالله وَ رُسُله وإِنْ تُؤْمنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ (سورة آل عمران :179).

ويقدم القرآن الكريم الحادثة التالية التي وقعت في زمن النبي صلى الله عليه كمثال على ذلـــك: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَان فَبِإِذْن الله وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمنينَ *وَ لِيَعْلَمَ الَّذينَ نَافَقُوا وَ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتلُوا في سَبِيلِ الله أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ للْكُفْرِ يَوْمَئذ أَقْرَبُ منْهُمْ للإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاههِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ** ﴾ (سورة آل عمران :166-167).

والآيات المذكورة توضح تماما ما ذكرناه حتى الآن. ففي عصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم, واجه المسلمون الظلم وعانوا ظروفا شاقة. ولكن, ومثلما تشير إلى ذلك الآية, فما عانوه وكابدوه كان بإرادة الله تعالى, فأعان ذلك على كشف المنافقين الذين حاولوا أن يسببوا الأذى للمؤمنين. أي بمعنى آخر, كل شيء في النهاية أفضى إلى مصلحة المؤمنين.

المسلمون, الذين يفهمون العبر والدروس الموضحة في هذه الآيات, يعتبرون الحدث الذي يبدو سيئا, أو لحظات المصاعب فرصة من خلالها, يُوضع إخلاصهم وإيمانهم وصدقهم لربهم تحت الاختبار. لا ينسون أبدا، أن الصعاب أو النعم هي لامتحانهم و اختبارهم. بل على العكس, لصدقهم وإذعانهم لربهم وحده , يغير الله ما يبدو سيئا فيكون

خيرا لعباده المخلصين.

في الصفحات التالية, سوف نتحدث عن المصاعب التي من الممكن أن تعترض سبيل المؤمن والمحن التي كثيرا ما تصيب المؤمنن في هذه الدنيا. وهدفنا هو تذكير المؤمنين بالنعم المخبوءة و المكافآت التي ينالونها بصبرهم, في هذه الدنيا وفي الآخرة.

ابتلاء الله للإنسان بفقدان ثروته

إنّ هدف أكثر الناس في الحياة هو جمع أكبر ثروة ممكنة. و للوصول إلى هذه الغاية, فهم يلجئون إلى كل طريق, ويتبعون كل سبيل حتى لو كان غير شرعي. إن الأهمية التي يعطيها الإنسان للممتلكات وصفت في القرآن الكريم ب"حبّ" لـــ "زينة الحياة الدنيا"، قال تعالى: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَ الْبَنِينِ وَ الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَ الْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾ (سورة آل عمران: 14).

وقال تعالى: ﴿ **الْمَالُ وَ الْبُنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً** ﴾ (سورة الكهف: 46).

و في آية أخرى, يصف الله تعالى أولئك الناس البعيدين عن الأخلاق الدينية بـــقوله: ﴿ **وَ تُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا** ﴾ (سورة الفجر :20).

وما ينبغي علينا فهمه من هذه الآية, هو أن الجاهل يتوق بشدة للغنى لأن الغنى هو أحد أهم مقاييس المكانة والمنزلة في المجتمعات

ذات القيم البعيدة عن الدين. ففي هذه المجتمعات التائهة, يوقر الناس الثريّ ويحترمونه ويجلونه لغناه. وإحراز مثل هذا الثراء يجعل أصحابه يخطئون معتقدين أنه أصبحت لهم سلطة لا توجد عند غيرهم. وفي هذه الحالة يصبح امتلاك الثروة الهدف الرئيسي في الحياة.

وهذه الرغبة الجامحة في امتلاك الثروة تقود إلى حياة ملؤها الخوف من فقدانها. فهؤلاء الذين يملكون مثل هذه النظرة كثيرًا ما يقنطون عند فقدانهم لثرائهم, وعندها يصبحون متمردين إزاء خالقهم. ولكونهم جاهلين بأن ما أصابهم هو عبارة عن ابتلاء، فإنهم يصبحون مُحبطين تماما بسبب فقدانهم لثروتهم.

وفي المقابل يأمر الله تعالى الإنسان بقوله: ﴿ **لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَ لاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَ اللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ (سورة الحديد :23). فهو تعالى يأمر الإنسان أن يقود نفسه باعتدال و يتبنى الأخلاق الحميدة. فالقنوط لفقدان الثراء والابتهاج في أوقات الرخاء, هو دليل على الكفران والجحود تجاه الله تعالى.

تحت تأثير هذه النظرة المنحرفة، فإن أفراد المجتمعات الجاهلة يعتبرون أنه من المقبول تماما الشعور بخيبة الأمل لفقدانهم ممتلكاتهم. فالأمان الاقتصادي الذي يستمتع به صاحبه مثلا والذي يتمثل في الغنى و الثراء, قد يختفي فجأة بسبب كارثة طبيعية, أو بسبب حريق يأتي عليه في لحظات. وقد ينتهي الأمر بالمرء أحيانا إلى أن يدمر بيتا جميلا شراه بعد سنوات من الادخار والجهد لأن زلزالا هزه من قواعده. فالأمر المهم هنا, أن الإنسان غير المدرك لطبيعة هذه الحياة سيشعر بالارتباك عندما

يصاب بخسارة كهذه؛ فيصبح بذلك مثقلا بالتشاؤم مشحونا التمرد.

إنّ هؤلاء البعيدين عن أخلاق القرآن الكريم يفشلون في أن يدركوا أن فقدانهم لثرائهم قد يكون لخير ومنفعة. ومن الطبيعي- بسبب نظرتهم هذه و تقصيرهم في التوكل على الله - أنّ العلو الذي يشعرون به بسبب غناهم وثرائهم سوف يجلب لهم التعب والمشقة.

أما أولئك الذي يوقنون أن مع العسر يسرا وأن الخير مع الشدّة، فحالهم ليست على هذا النحو. فهم يدركون أنّ فقدان الثراء والمتاع هو لهدف وغاية, حتى وإن لم يتمكنوا فورا من التوصل إلى الحكمة من ذلك الأمر. فقد يكون وكأنه تذكرة من الله تعالى لعباده الذين غرهم الثراء و غلبتهم متع الدنيا الزائفة. فأي نقص في المال إنما يذكرنا بقدرة الله المطلقة وفقرنا الكبير إليه, وبالتالي يدفعنا إلى تركيز اهتمامنا به وحده. أو لعل الله تعالى قد ادخر لعباده الذين صبروا في الضائقات الأليمة وتوكلوا عليه ما هو أفضل. فعوضا عن متع الحياة الدنيا الزائلة, يمنحهم الله تعالى ما لا يعد و لا يحصى من نعم الجنة الأبدية ؛ وبكل تأكيد , فإن نعم الجنة الخالدة أعظم من نعم الدنيا الزائلة.

على كل حال, فإن تلك التغيرات في الأرزاق قد تأمن هدفا عاجلا و فوريا. فمثلا, قد يكون هناك خير في إصابة أحدهم بحادث طريق بسيارته الجديدة , لأنه بذلك قد حفظه الله من حادثة أكثر خطورة لربما كانت ستسبب له أذى أكبر. فالإنسان بضميره الحي يدرك أن هذه الحادثة هي بمثابة تذكرة, وإنذار, فيسأل الله تعالى المغفرة و يرضى بالقضاء المقدر له من الله تعالى.

" عسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم..."

كما ذكرنا سابقا, فالله تعالى يعلمنا في سورة البقرة , الآية 216, أن بعض الوقائع التي تبدو لنا سلبية هي في الحقيقة جيدة و إيجابية. وبالمثل, وكما تشير إلى ذلك الآية الكريمة نفسها, فالله تعالى أيضا يوضح لنا أن ما قد يحبه الناس في هذه الدنيا قد يكون وراءه شر كبير لهم. وفي القرآن الكريم, يضرب الله تعالى المثل بالكافرين الأغنياء الذين يثقل عليهم الإنفاق من ثروتهم. فهم يعتقدون أن توفير المال "ذكاء" وفطنة, وظنهم أنه بادخاره و عدم إنفاقه في سبيل الله سوف يجلب لهم بعض النفع, بينما هو جهل وغفلة. وفي القرآن أيضا, يخبرنا الله تعالى أن مثل هذا الغنى, هو الشر بعينه و لن يجلب لصاحبه إلا العذاب في جهنم.

قال تعالى: ﴿ **وَ لاَ يَحْسَبَنَّ الَّذينَ يَبْخَلُونَ بمَا آتَاهُمْ اللهُ منْ فَضْله هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخلُوا به يَوْمَ الْقيَامَة وَ للهِ ميرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ (سورة آل عمران:180).

في سورة القصص, يحكي الله تعالى لنا قصة قارون. لقد وهب الله تعالى قارون الثراء الفاحش لكنه أصبح مختالا مغرورا لسعة ثروته, وعظمت غطرسته إزاء ربه. ففي حادثة قارون, الذي أُهلك لأنه بقي غافلا عن النذر, عبرة للناس. وقد قص علينا القرآن الكريم قصة قارون كما يلي: ﴿ **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَ آتَيْنَاهُ مِنَ**

الكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي القُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحبُّ الفَرحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَ لاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَ أَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَ لاَ تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحبُّ المُفْسدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعًا وَ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ المُجْرِمُونَ ﴾ (سورة القصص:76–78).

وكما توضح لنا الآيات السابقة, فإن قارون قد اعتقد أن كنوزه ستجلب له الخير. لذا ابتهج وغدا متعاليا ومتكبرا بها. لكنه, في النهاية عانى من خيبة أمل عظيمة.

ومن جانب آخر فإنّ نظرة المؤمنين إلى أموالهم تختلف كثيرا عن هذا الفهم الخاطئ. والاموال والثروات عند المؤمن الملتزم بتعاليم القرآن, لا تمثل غاية في حد ذاتها ولا يوليها ذلك الاهتمام المبالغ فيه. فالمؤمن يقود نفسه بنبل؛ فهو لا يسمح لنفسه ان تقوده كما تشاء فتجعله يلهث وراء المال بلا توقف. إنّ المؤمن يكرس كل حياته فقط لكسب رضى الله تعالى، ولا يسمح لنفسه أبدا أن تأسره برغبات أنانية؛ فهو يتوق لثواب الآخرة الأبدي و ليس لمتاع الحياة الدنيا. فالله تعالى يَعدُ المؤمنين الذين عرفوا طريقهم وحددوا نظرتهم إلى المال والدنيا بالجنة، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَ الإِنْجِيلِ وَ القُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ العَظِيمُ ﴾** (سورة التوبة :111) .

إنّ الأنبياء والرسل والمؤمنين الصادقين المخلصين اعتبروا أن ما عندهم هو بمثابة نعمة من ربهم، فهم يعلمون من أعماق قلوبهم أن كل ما يملكون يرجع في النهاية إلى الله وحده. لهذا فهم ينفقون من مالهم وممتلكاتهم في سبيل الله. وهذا الخلق السامي والشعور النبيل تجاه الآخرين ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَ اليَوْمِ الآخِرِ وَ المَلاَئِكَةِ وَ الكِتَابِ وَ النَّبِيِّينَ وَ آتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ المَسَاكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ السَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَ أَقَامَ الصَّلاَةَ وَ آتَى الزَّكَاةَ** ... ﴾ (سورة البقرة :177).

كذلك فإن المؤمنين لا ينفقون للتفاخر، فنيتهم الصادقة من الإنفاق هي كما تبينه الآية الكريمة: ﴿ **وَمَثَلُ الذينَ يُنْفِقُونَ أمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَ تَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ** ... ﴾ (سورة البقرة:265)

وهم عندما يفقدون بعض ممتلكاتهم, يتصرفون بشكل مختلف كثيراعن أولئك الجاهلين. ففي واقع الأمر, هم يعرفون أنه امتحان من الله تعالى. فيصبرون و يسعون لإدراك ما قد يظهر من خير من وراء تلك الخسارة أو الفقدان. والنظرة النبيلة التي ينظر بها المؤمن إلى الأحداث يعكسها هذا الدعاء الذي يعلمنا القرآن الكريم أن ندعو به: ﴿ **قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَ تَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**". (سورة آل عمران :26)

وتبعا لذلك, فالمؤمنون يعلمون جيدا أنّ الثراء و المال الذي يملكه غير المؤمنين في هذه الحياة الدنيا لن يجلب لهم سوى العذاب والخسران، وهذا وعد من الله تعالى: ﴿ **فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ** ﴾ (سورة التوبة:55)

الحكم الإلهية من وراء الأمراض

إن الناس الذين يعيشون في مجتمعات الجهل يخططون باستمرار للمستقبل و يأملون أن تتقدم خططهم كما يرغبون.

و هنا تكمن المشكلة, فحدوث مرض غير متوقع أو حادثة معينة تلقي بحياتهم في فوضى تامة, حيث أن تلك الأحداث لم تكن داخلة في خططهم المستقبلية. وعندما كانوا يتمتعون بكامل عافيتهم, لم يفكر الكثير منهم أبدا أن مثل تلك الأحداث —مع أنها تحصل للآلاف كل يوم — قد تحدث لهم.

لهذا, عندما يُواجه الجاهلون بمثل تلك الأحداث غير المتوقعة, فإنهم يفقدون فورا صوابهم ولا يعرفون ما يفعلون. فهم ينكرون حقيقة القدر و يقولون ,"لماذا حصل لي هذا ؟ " والسبب أن هؤلاء البعيدين عن التمسك بالأخلاق القرآنية, ينزعون إلى عدم التوكل على الله في أوقات الشدة أو المرض, أولا يبحثون عن الخير فيما يحصل لهم.

إنّ هؤلاء الذين لا يدركون حقيقة القدر, يعزون سبب المرض لمجرد الفيروسات أو البكتريا. وبالمثل, عند تورطهم في حادث سير,

فهم يعتبرون أن سائق السيارة الأخرى هو السبب في الحادثة. بينما الحقيقة لها صورة مختلفة تماما. فكل ما يسبب المرض, من بكتيريا أو ميكروب أو أي شيء يسبب الأذى للإنسان, في الواقع مخلوقات خلقها الله تعالى وهي مجرد أسباب. فلا شيء من هذ الأشياء أسباب "عشوائية"؛ فهي تمتثل لحكم الله تعالى. و الإنسان قابل للتأثر بالميكروبات لأن الله أراده كذلك. وإذا حل بإنسان مرض خطير بسبب فيروس ما, فذلك يحدث لأن هذا ضمن علم الله و إرادته.

لو أن سيارة صدمت إنسانا, فتركته مقعدا, فهو أيضا حدث أوجد بإرادة الله. وهو لن يستطيع أبدا أن يغير مجريات تلك الأحداث؛ ولا حتى واحدة منها مهما ناضل لتجنبها. فهو لا يستطيع أن يمحو لحظة واحدة من قدره لأن القدر خلق وحدة متكاملة. والإنسان المستسلم لربه العظيم, واثق في حكمته ورحمته المطلقة, فحدث أو مرض أو ما شابهه, ما هو إلا محنة مؤقتة توصل للنعيم المطلق في الجنة.

إنّ الصفات الأخلاقية الحسنة التي يتمسك بها الإنسان في ظروف كتلك, هي الأمر المهم. فالأمراض و الحوادث هي الوقائع التي يملك المؤمنون الفرصة ليقدموا إزاءها البرهان على صبرهم وحسن أخلاقهم, وبواسطتها يستطيعون أيضا التقرب من الله تعالى. وفي القرآن الكريم, يتحدث الله تعالى عن الأمراض في حين أنه تعالى يسرد لنا أهمية الصبر في تلك الأوقات.

قال تعالى:﴿ لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَ المَغْرِبِ وَ لَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَ اليَوْمِ الآخِرِ وَ المَلاَئِكَةِ وَ

الكِتَابِ وَ النَّبِيِّينَ وَ آتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَ اليَتَامَى وَ المَسَاكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَالسّائِلِينَ وَ فِي الرِّقَابِ وَ أَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَ المُوفُونَ بعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَ الصَّابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ حِينَ البَأْسِ أُولَئِكَ الذِينَ صَدَقُوا وَ أُولَئِكَ هُمْ المُتَّقُونَ ﴾ (سورة البقرة:177).

إنّ حقيقة اعتبار الأمراض في هذه الآية من ضمن المحن يستحق بعض التأمل والتفكير. فالإنسان عندما تواجهه مشكلة صحية عليه أن يتذكر دوما أنها امتحان له, وأن الله تعالى هو فقط من يجلب الأمراض و يشفي منها. هذا هو المنطق اللازم للحفاظ على سلوك أخلاقي سليم. فالإنسان ينتفع من تفكيره بالخير و الهدف الإلهي من وراءِ المرض الذي يعاني منه, أو الحادثة التي ألمت به, مع أنه قد لا يتمكن من فهمها في الحال. لربما كان عليه أن يمر بصعاب مؤقتة, ولكن هذا الإنسان، وهو العبد الذي أذعن لله بصدق، سوف يفوز بالنعيم المطلق.

فعلينا جميعا أن نبقى ذاكرين, مع ذلك, أنه من المهم إدراك هذه الحقيقة في أعماق قلوبنا و أن نحافظ على الأخلاق العالية فور إصابتنا بحدث ما. و للوصول إلى هذه الغاية, من الضروري أ ن نعلم أن كل الأمراض وجدت لهدف. و لو أراد الله تعالى لما أصابنا أي مرض، ولبقي الواحد منا صحيحا لا يمرض أبدا. ولكن, هذه الأمراض هي لغاية ما، فإذا ما ابتلي الإنسان بمحنة ما, فعليه أن يدرك أنها لهدف, وهذا يساعده في فهم زوال هذه الحياة الدنيا و قدرة الله المطلقة.

الأمراض تذكر الإنسان بضعفه وحاجته إلى الله تعالى

في أوقات المرض, تهجم البكتيريا والفيروسات على الجسم القوي فتجعله منهكا متعبا. و كما هو معروف, فإن كثيرا من الأمراض تسبب الألم و تترك الجسم واهنا ضعيفا. وفي بعض الأحيان, قد لا يقوى الإنسان على النهوض من فراشه أو القيام بأعماله اليومية. ولأن هذا الإنسان غير قادر على مقاومة فيروس صغير غير مرئي, يزداد بالتالي فهمه لمدى ضعفه وكيف أنه في حاجة مستمرة إلى الله تعالى. وعندما تتراجع صحة الشخص بعد أن كان قويا جلدا، وبعد أن كان يتجرأ على الله أحيانا فيعصي أوامره وينسى نُذره ويتفاخر بأمواله وممتلكاته, يدرك تمام الإدراك هذه الحقيقة. وبالتالي يحسن تقدير العظمة الإلهية, عظمة الله الخالق لكل شيء.

الأمراض تُشعر الفرد بأن العافية نعمة و فضل من الله تعالى

هناك أمر طالما نفشل في تقديره خلال صخب حياتنا اليومية، وهو الغفلة عن الانتباه إلى أن الصحة والعافية من أكبر النّعم.

إنّ الإنسان الذي لم يعان من مرض لفترة طويلة, و بالتالي لم يكابد الألم, سيعتاد على حالته تلك. ولكن, عندما يباغته مرض مفاجئ يدرك أن الصحة نعمة عظيمة من الله تعالى. هذا لأن الحرمان من شيء أو فقدانه يجعل الواحد منا يحسن تقدير قيمته. وكما يقول سعيد النورسي المعروف أيضا ببديع الزمان: **اتّفق أهل الحق على القول: إنما تُعرف الأشياء بأضدادها ... فمثلا، لولا الظلمة لما عُرف النور, ولظل دون**

معنى. و لولا البرودة لما عرفت الحرارة و لبقيت دون طعم، ولولا الجوع لما أحس الإنسان بلذة الأكل، و لولا حرارة المعدة لما كان للماء ذوقا, و لولا العلة لكانت العافية بلا ذوق، ولولا المرض لكانت الصحة عديمة اللذة ." اللمعة الخامسة و العشرون, الدواء السابع".

المرض الخطير يذكّر الإنسان بعجزه وحاجته إلى الله

إنّ أغلب الناس يعتبرون أنّ إصابتهم بمرض مميت أو فقدانهم لعضو في جسدهم أمر يدعو إلى الغضب والامتعاض. بينما, بالعكس من ذلك ينبغي النظر إليه نظرة مختلفة بحيث يفهم على أنه وسيلة للنجاة في الآخرة ودعوة إلى مزيد توثيق الصلة بالله تعالى. فالإنسان المبتلى بمرض خطير يصبح أكثر حذرا ويقظة, ولذلك فإن معاناته وآلامه تساعده على إدراك لا مبالاته التي طالما أعاقت ضميره وقلبه, وتحثه بذلك على التبصر في حقيقة الحياة الآخرة. ففي مثل هذه اللحظات ينتبه الإنسان إلى حياة العبث التي كان يعيشها ويدرك مدى قرب لحظة الموت. وبدلا من أن يحيى حياته بلا مسؤولية, فإن انقضاض المرض عليه فجأة, يجعله يدرك أهمية كسب رضى الله تعالى والفوز بنعيم الآخرة, و بالتالي يكون المرض سبيلا للنّجاة.

الأمراض تزيد من تضرع الإنسان إلى الله و قربه منه

عندما تزيد تأثيرات المرض فتصبح أكثر خطورة, يبدأ الإنسان التفكير في الموت, تلك الفكرة التي تعمد تجنبها لوقت طويل. وعندئذ

يدعو الله بكل ما أوتي من إخلاص وصدق, أن يمنحه الشفاء من ذلك الدّاء. فحتى الإنسان الذي لم يدع الله يوما, قد يشعر فجأة بحاجته للتوسل إلى الله عندما يبتلى بمرض عضال. فهو يتوجه إلى الله بأصدق الدعوات وأخلصها ؛ وهذا ما يكون سببا في زيادة قربه من الله تعالى. وإذا لم يظهر الجحود و كفران الجميل بعد شفائه بل استمر في الصلاة والدعاء بصدق وإخلاص, فإن مرضه هذا يصبح خيرا وبداية لحياة ملؤها الإيمان.

والله سبحانه يذكر الناس الذين يتوجهون إليه في تلك المحن بقوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ** ﴾ (سورة فصلت: 51)

ويقول تعالى: ﴿ **وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (سورة يونس: 12).

وقال تعالى: ﴿ **وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ** ﴾ (سورة الروم :33) .

وكما تشير إلى ذلك الآيات السابقة, على الإنسان أن لا يدعو الله فقط في أوقات الصعاب والمحن، بل عليه أن يلجأ إليه كذلك بعد أن يرفع عنه مصابه. عندئذ يمكن أن يكون هذا المرض دافعا للإنسان لكي يعترف بضعفه أمام الله تعالى فيتوب إليه, وبالتالي يقوي صلته بالله تعالى

ويشدّه إلى طاعته أكثر.

قد تكون الجنّة هي جزاء الصبر على المرض

هناك هدف آخر من تكبد عناء الأمراض ألا وهو امتحان صبر الإنسان وثقته بالله. فعندما يمتحن المسلمون بمرض يتميزون جليا عن غيرهم من أقوام الجهل, بالصبر و الثقة بالله تعالى وإخلاصهم له وحده. وذلك لأنهم أدركوا الفهم الصحيح الذي يثبتون عليه في أوقات الشدة، فهم يستحقون رضى الله تعالى. فغايتهم هو كسب الجزاء العظيم في الآخرة. فالإنسان الذي فشل في إخضاع نفسه لله قبل مرضه قد يكتسب تلك الصفات النبيلة خلال مسار معاناته, وقد يحرز النعيم المطلق في الجنة مقابل تلك المشكلات المؤقتة في الدنيا.

إن سيدنا إبراهيم بدعائه الصادق المخلص عند مواجهة المرض هو مثال جيد لكل المؤمنين, قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ *وَ الَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ** ﴾ (سورة الشعراء:80-81).

إن الموقف النبيل الذي اتخذه سيدنا أيوب عليه السلام هو مثل آخر جيد للمؤمنين. وكما يخبرنا القرآن الكريم, فأيوب عليه السلام عانى من مرض شديد جدا؛ ولكن مرضه عزز إخلاصه وثقته بالله تعالى و توكله عليه, فجعلته خصاله تلك من بين الأنبياء الذين أُثني عليهم في القرآن الكريم.

وبالإضافة إلى كل ما عانى سيدنا أيوب عليه السلام من أمراض، يخبرنا القرآن الكريم,أنه كان أيضا معرضا لوساوس الشيطان الخبيثة. فقد

استغل الشيطان لحظة الضعف تلك, وحاول أن يصرفه عن وضع ثقته بالله والتوكل عليه. وفي أوقات كتلك, من الصعب على إنسان مريض أن يركز انتباهه, وبذلك يصبح عرضة لوساوس الشيطان؛ ولكن إخلاصه لله وثقته به وتوكله عليه حق التوكل عصم سيدنا أيوب عليه السلام من مكائد الشيطان. وقد تضرع إلى الله بإخلاص وسأله العون والتثبيت.

وقد قص علينا القرآن الكريم دعاء سيدنا أيوب عليه السلام لكي نأخذ منه العبرة والعظة، قال تعالى: ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ ذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ** ﴾ (سورة الأنبياء: 83-84).

واستجاب الله لدعاء سيدنا أيوب لأنه كان صادقا مخلصا, قال تعالى:

﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ* ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَ شَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلاَ تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ (سورة ص:41-44). فسيدنا أيوب عليه السلام تلقى المكافأة على عظمة أخلاقه وحسن توكله على الله تعالى وصدق لجوئه إليه. وأصبح مثلا طيبا يحتذى به عند المؤمنين كافة.

في أخطاء المؤمنين أيضا خير

إنّ ارتكاب الخطإ من الأمور التي يفزع الناس منها فزعا شديدا في المجتمعات التي يكثر فيها الجهل. فعندما يرتكب الإنسان خطأ يتعرض للإهانة ويصبح عرضة للسخرية. أو لعل خطأه ذاك قد يجعله يفقد فرصا ربما رآها مهمة. فارتكاب الخطإ في المجتمعات الجاهلية هو بمثابة الكابوس الذي ينبغي عدم الوقوع فيه.

أما القرآن الكريم فينظر إلى هذه المسألة من زاوية أخرى مختلفة. فالمؤمن لا يحكم على الناس من خلال أخطائهم، لأنه يعرف أن الذي أخطأ إنسان وكل الناس خطائين. ولذلك فالمؤمن، على العكس يشعر بالرحمة والشفقة على المخطئين.

عندما يرتكب المؤمن خطأ, يتأمله جيدا ويدرك بضميره الحي مواطن الخطإ؛ فمخافته من الله تعالى وضميره ينبهانه على الفور. فهو يناضل ليصحح أخطاءه, ويدعو الله الحليم ويسأله التوبة. ففي الواقع, إن ما يشعر به المؤمن من ندم بعد ارتكابه للخطأ, لن يقوده إلا إلى خير. وذلك لأن شعوره ليس من نوع الندم المشوب برثاء النفس الذي يشعر به غير المؤمن, بل هو إقدام و تصميم على عدم تكراره مجددا. إن الإذعان الذي يظهره المؤمن لله, وتوكله عليه والعمل مع الإدراك أن كل الأحداث إنما هي جزء من قضائه وقدره كلها عوامل مهمة بالنسبة إليه، فهي تقربه أكثر من خالقه.

"كلّ نفسٍ ذائقةٌ الموت ..."

حسب اعتقادٍ الغافل الجاهل, فإن أسوء ما قد يحدث لإنسان هو الموت. هذا لأن أقصى ما يخافه هو الدنو من الموت أو فقدان حبيب. فهو يتجنب حتى مجرد الحديث في الموت. ومع أن الجاهل قد يدرك الخير في أحداث معينة, إلا أن الموت بالنسبة إليه, لا يمكن أبدا أن يكون شيئا جيدا.

إن نظرة المجتمعات غير المؤمنة إلى الموت ثابتة لا تتغير؛ فهي لن تتمكن أبدا من النظر إليه بطريقة مختلفة. الموت في هذه المجتمعات هو بمثابة الفناء والزوال الكامل, أما الآخرة فهي مجرد تخمين.

إن الأقوام التي تعيش بعيدة عن الحياة الدينية الحقيقية تعتقد أن هذه الدنيا هي المبدأ والمآل، وهي الحياة الوحيدة ولاشيء بعدها. وبالموت, تنتهي هذه الفرصة الوحيدة. وهنا المشكلة التي تقود إلى المعاناة, فهم يحزنون أشد الحزن لفقدان عزيز. بل والأسوء من ذلك, ففقدان عزيز فجأة في سن الشباب قد يقود الجاهل لكي يكفر بالله أكثر ويغضب من القضاء والقدر.

لكن هؤلاء ينسون بعض الحقائق المهمة: الأولى, لا أحد على وجه هذه الأرض يبعث للوجود بإرادته. فحياة كل واحد منا بيد الله تعالى؛ كل واحد منا قد ولد في وقت سبق وقدر من الله وحسب مشيئته. فالله, الذي له ما في السماوات و ما في الأرض و ما بينهما, بإمكانه أن يسترد روح من يشاء, في أي وقت يشاء. فلا أحد يستطيع أن يؤخر أجله. وهذا

ما بينه القرآن الكريم: ﴿ **وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً وَ مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ** ﴾ (سورة آل عمران :145).

فمهما اتخذ الواحد منا من و سائل الحذر, أو مهما اختار له من مكان آمن محصن, فلن يستطيع أن يتجنب الموت. فالإنسان قد يرحل عن هذه الدنيا في أي وقت. وبالمقابل, مهما ناضل أحدهم لكي لا يفقد عزيزا أو حبيبا –حتى إن استنفد كل الوسائل الممكنة على الأرض لهذه الغاية– لا يمكنه أن يمنع الموت. فهذا الإنسان قد يواجه بالموت أينما يكون، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة, قال تعالى: ﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ...** ﴾ (سورة النساء: 78). إذن, فالحل هو أن لا نجتهد في تجنب الموت, بل في أن نكون مستعدين للحياة الآخرة.

الموت هو البداية وليس النّهاية

إن ضعاف الإيمان أو أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة, لديهم فهم مشوه للموت و للحياة التي تأتي بعده. ولهذا, فهم يعتبرون الموت مصيبة وفاجعة وليس رحمة. فهم يؤمنون أنه عندما يفقدون بالموت أحدا فإنما يفقدونه إلى الأبد؛ ولهذا, فهو يصير في باطن الأرض إلى العدم الذي لا رجعة ولا حياة بعده.

وفي الحقيقة, فالموت ليس بنهاية أبدية، بل هو انتقال إلى الحياة الآخرة , حيث المأوى الأخير. إنها لحظة نقترب منها جميعا, إلى اليوم

الذي سيكون علينا أن نقدم فيه تقريرا بكل ما فعلنا في هذه الحياة الدنيا, إنه يوم الحساب. فكل إنسان, سيجد نفسه وجها لوجه مع لحظة الموت التي تقوده إلى الخلود. قد يحدث هذا في مقتبل العمر، وقد يحدث مع تقدم السن. لكن في النهاية الجميع سوف يرحلون يوما عن هذه الدنيا؛ وكل يوم يمر يقربنا من هذا الموعد أكثر فأكثر. ولذلك فالاجتهاد للهروب من الموت أمر لا يجدي, وتجنب الخوض في فكرة الموت نفسها أو اعتباره كارثة, أمر غير منطقي تماما.

وهناك بعض الناس الذين يؤمنون بالآخرة ولكنهم يبدون الحزن والأسى عند فقدان شخص ما. لكنهم ينبغي أن يعرفوا أن الله تعالى لا يظلم أحدا وكل إنسان سوف يحاسب على كل ما عملت يداه في هذه الدنيا. ولهذا فكل من آمن بالله تعالى وبالآخرة, وعاش حياة مكرسة لعبادة خالقه, فإنّ الموت يكون بابا من خلاله يمضي إلى حياة أخرى في الآخرة ملؤها السعادة. ولكن الموت من وجهة نظر الجاهل الذي ينكر الآخرة ويستخف بيوم الحساب, هو طريق لعذاب أبدي. لهذا السبب, يصعب عليهم اعتبار الموت خيرا لهم. أما بالنسبة للمؤمنين فالموت هو البداية لنجاة كاملة.

إنّ رد فعل المؤمن إزاء موت مؤمن آخر يختلف اختلافا بيّنًا عن رد فعل الجاهل لأن الموت الذي ينظر إليه الجاهل على أنه أسوأ ما يقابل الإنسان هو في الحقيقة, خير للمؤمن. ويبين الله تعالى حقيقة الموت عند المؤمنين: ﴿ **وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ (سورة آل عمران: 157).

إن حياة المؤمن خير وموته خير. فالله تعالى يخبرنا أن الجنة أعدت على مراتب ودرجات, وأعلاها خصصت للمؤمنين الذين يموتون جهادا في سبيله. فالشهادة في سبيل الله شرف ونعمة ينال بها المؤمن أعلى المراتب في الآخرة. إنّ الموت يمثل حدثا رائعا عند المؤمن إذا كان سيفضي به إلى الجنة وإلى كسب رضى الله تعالى. والمؤمن يوقن بتلك الأخبار السارة المذكورة في القرآن الكريم, فالمؤمنون لا يأسفون أبدا لموت مؤمن آخر أفنى حياته في ما يرضي الله تعالى. بل على العكس, هم يفرحون لذلك لعلمهم بسعادة المآل الذي أفضى إليه بعد موته. حقا, إن أعظم جائزة هي الفوز برضى الله تعالى وجنته.

إنّ المؤمن الذي عاش حياة مديدة طويلة مبذولة في خدمته تعالى, يستحق نيل الجائزة. فسيدنا نوح عليه السلام, الذي منحه الله العمر المديد, هو مثال على ما نقول لأن هذا النبي المخلص ناضل طوال حياته لكي ينال رضى الله تعالى و رحمته و جنته, فجهوده تلك زادت من جزائه في الآخرة. وعلى العكس, هناك وهم تقع فيه المجتمعات غير المؤمنة؛ فهي تعتبر العمر المديد هبة وهدية. والآية التالية تكشف خطأ هذه النظرة: ﴿ **وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ** ﴾ (سورة آل عمران : 178)

هؤلاء الذين ينتمون إلى مجتمعات الجاهلين, الذين يجعلون من مطاردة شهوات الدنيا الزائلة عملهم الوحيد في حياتهم, يعتبرون طول العمر فرصة إضافية للتمتع بمتع هذه الدنيا. وهكذا, فإن هؤلاء الذين

ينسون الله واليوم الآخر, يفشلون في فهم قيمة الوقت الذي يهدرونه باستهتار. وكما ذكر في الآية السابقة, فهذا الوقت الذي منح لهم ليس فيه خير لهم كما يتوهمون.

فالإنسان الذي يتأمل مليا هذه المسائل يفهم بعمق, كيف لنا أن نقرر ما هو "خير" وما هو "شر", حسب قول الله تعالى: "**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ**".

الأسباب التي تمنع من إدراك الخير في الوقائع

نسيان أن هذه الحياة هي مجرد امتحان

يعتقد البعض أن الكثير من أمور حياتهم خاضع للمصادفة. ولكن التفكير بهذه الطريقة ليس بواقعي أو منطقي. إن كل ما في هذه الحياة, بما فيها ظهور مرض السرطان مثلا أو التعرض إلى حادث طريق, ومن الطعام الذي يتناوله أحدنا إلى الملابس التي يرتديها, كلها أمور قد سبق وأن كان علمها عند الله تعالى. وكما ذكرنا ذلك أكثر من مرة في أثناء هذا الكتاب, فإن كل تلك الأحداث, بكل تفاصيلها, خلقها الله تعالى ليمتحن بها الإنسان.

ومن هنا، وعند هذه النقطة يظهر جليا ذالك الاختلاف الجوهري بين المؤمنين وغير المؤمنين. فالمؤمنون لديهم نظرة مختلفة جدا لما يحدث لهم وللعالم من حولهم. ونظرتهم هذه تنسجم تماما مع أوامر القرآن الكريم، أي في رؤيتهم لكل حدث على أنه جزء من امتحان. و من ثم يدركون أنّهم تحت الاختبار. فالمؤمنون يكافحون ليقودوا أنفسهم على طريق كسب رضى الله تعالى.

إن الناس الذين يبقون على ما هم عليه من عدم الاكتراث للحقائق التي كشفها الإسلام, واضعين لأنفسهم أهدافا واهمة عديدة؛ مثل أن يلتحقوا بكلية مرموقة, أو يحظوا بزواج سعيد, واجتياز أبنائهم للمراحل الدراسية, وتحسين أوضاعهم المعيشية, وإحرازهم المكانة العالية في المجتمع ... إن كل تلك الأهداف لديها قاسم مشترك واحد وهو أنها كلها أماني ورغبات متعلقة بهذه الدنيا فقط. إنّ خطط وطموح هؤلاء الذين يجعلون من تلك الأهداف غايتهم الوحيدة في حياتهم محدود بذلك المنظور السطحي الضحل. هذا لأن الغالبية من الناس ينحصر اهتمامهم في فهم هذه الدنيا ومزيد إدارك كنهها. والواقع أن هذا التفكير غير سليم. فحتى وإن حقق أحدهم جميع الأهداف التي و ضعها لنفسه, فحياته في النهاية محكومة بالموت والفناء. و بالتالي, تجعل الحياة الدنيا تافهة ولا معنى لها.

إنّ من يتبنى طريقة الحياة تلك لن ينال أبدا ما يرغب فيه. فهذا قانون الله الثابت الذي لا يتغير؛ لا شيء على هذه الأرض مستثنى من العطب. لاشيء على هذه الأرض مستثنى من عوامل الزمن. فالثمرة مثلا تأخذ في الذبول منذ اللحظة التي تقطف فيها من الغصن، إلى أن تبلى. وذاك البيت الذي بني بعناية فائقة يصبح مع مرور السنين والأيام غير قابل للسكن. والأهم من ذلك, أن جسم الإنسان أيضا معرض لعوامل الزمن المتلفة. وكل إنسان منا لا بد وأن ينتبه إلى مؤثرات الزمن في جسمه. فالشعر يشتعل فيه الشيب, وتضعف الأعضاء, وتتجعد البشرة، إضافة إلى علامات أخرى كثيرة تشير إلى قرب النهاية وحتميتها.

إلى جانب الهرم, فحياة الإنسان, التي نادرا ما تمتد إلى أكثر من سبعة عقود, قد تنتهي فجأة ودون سابق إنذار؛ فإن حوادث غير متوقعة, كحادث طريق مثلا, أو مرض عضال, قد يودي في أية لحظة بحياة الإنسان. وكما قلنا في الجزء السابق, مهما حاول الإنسان أن يناضل ليتجنب فكرة الموت, فسوف يقابل أخيرا تلك النهاية المحتومة التي لا مفر منها. سواء أكان إنسانا مشهورا أو فتاة جميلة, فليس هناك من هو محصن من الموت . فلا الثروة و لا المال و لا الأولاد و لا الأصدقاء, ولا أي شيء في الدنيا يمكن أن يمنع مخالب الموت من أن تمتد إليه, قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذي تَفرُّونَ منْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**) (سورة الجمعة: 8)

إن المقصود مما سبق، وكون الحياة في هذه الدنيا زائلة وفانية أن يوجه الإنسان كل طاقاته للحياة من أجل الفوز بالحياة الآخرة. قال تعالى: ﴿ **فَمَا أُوتِيتُمْ منْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاة الدُّنْيَا وَ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ (سورة الشورى:36).

إذا ما أخذنا بعين الاعتبار حقيقة زوال هذه الدنيا وأن الإنسان معرض للموت, فهذا يقودنا لموضوع علينا جميعا أن نتأمّل فيه مليا؛ وهو الهدف من خلق الإنسان على هذه الأرض. والله تعالى يضع هذا الهدف جليا في الآية التالية, قال تعالى: ﴿ **الَّذي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ** ﴾ (سورة الملك: 2).

في كثير من آيات القرآن الكريم, يبين الله سبحانه وتعالى أن الإنسان خلق ليكون عبدا لخالقه. كما أنه تم التأكيد أيضا على أن الحياة الدنيا هي امتحان ليميز به الله الخبيث من الطيب، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ (سورة الكهف: 7).

ولأن حياة الإنسان كاملة هي حلقة في اختبار عام, فلا شيء مما يحصل للإنسان يكون عرضيا أو غير مقصود. ومن الخطإ الكبير الاعتقاد بأن الأحداث التي تقع إنما تحدث على نحو عبثي، فلا شيء يحدث بمعزل عن حكمة الله وتدبيره وتقديره. فكل ما يقع من أحداث في مسار هذه الحياة, ابتلاءات وضعها الله تعالى ليختبره بها. والإنسان بدوره يعتبر مسؤولا عن ردود فعله وسلوكه في خضم هذه الإبتلاءات. فالطريقة التي يقود بها نفسه, والخلق الذي يبديه ويثبت عليه, يحدد ثوابه أو عقابه في الحياة الآخرة.

لاشيء – سواء كانت التجربة عظيمة أو بسيطة- يحدث عرضيا, وكل ما يحصل لنا في حياتنا هي أحداث كتبت لنا في قدرنا, وهي كلها حقائق على الإنسان أن يتذكرها دائما. وإذا ما حرص الفرد على تذكر تلك الحقائق, فإنه لن ينسى أبدا أن كل ما يقابله في الحياة هو في النهاية خير له. أي بمفهوم آخر, إن ما يقابله ويتعرض له هو فقط ما أراده الله تعالى له. ومن هنا نخلص إلى أنه من المهم جدا تذكر أن هذه الدنيا هي دار اختبار من خلالها يقتضي علينا رؤية الخير والأهداف الإلهية لهذه الحياة.

لا يحمل الله تعالى إنسانا فوق طاقته

إن الله تعالى يضع كل إنسان في محن متفاوتة ذات أحداث متنوعة عديدة. ولكن, وجب القول أنه تعالى ذو العدل المطلق وأنه عفو عن عباده لأنه هو "الحليم"؛ فهو تعالى لن يُحمل أحدا أكثر من طاقته. وهذا هو وعده تعالى ولن يخلف الله عهده, قال تعالى: ﴿ **وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَ لَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ** ﴾ (**سورة المؤمنون: 62**).

وقال تعالى: ﴿ **وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ (سورة الأعراف: 42).

إن الأمراض والحوادث وكل أشكال الآلام والأحزان, وكل أنواع المحن الأخرى التي قد تعترض الإنسان في هذه الحياة الدنيا, تقع في دائرة قدرة الشخص على فهمها. لكن إذا ما اختار الإنسان التمرد والجحود وسلوك الطباع الشيطانية بدلا من التمسك بأخلاق القرآن العظيمة, مثل الصبر وغير ذلك فهو الذي يتحمل المسؤولية على ذلك.

في بعض الأحيان قد يشعر الإنسان أنه استنفذ كل السبل المتاحة للتغلب على مشكلة ما, فلا يرى منفذا من الوضع الذي هو فيه. وقصوره أيضا في تذكر وجود الخير في مثل ذلك الحدث, قد يدفعه إلى أن يصبح عاصيا متمردا. وهذه مشاعر فاسدة ألقى بها الشيطان في نفسه. فعلى المؤمن المخلص مهما واجه في حياته أن يبقى مدركا لحقيقة أنه في

وضع يستطيع معه أن يقود نفسه بأخلاق فاضلة وبكل صبر. أما إذا داخلته الوساوس والشكوك فعليه أن يفهم أن ذلك من عمل الشيطان. فالله تعالى يأمر عباده بأن لا يقنطوا، قال تعالى : ﴿ **أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَ أَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ** ﴾ (سورة الزمر:52–54).

والإنسان الذي يلتزم بما أمره الله تعالى, يعلم تمام العلم أن الحسن لا يأتي إلا بالحسن؛ وبالمقابل فالإنسان الذي يقنط سيكون وحيدا في هذه الدنيا لا مخرج له مما هو فيه. والله تعالى يعلمنا أن هؤلاء الذين يقنطون من رحمته تعالى هم في الحقيقة, غير مؤمنين: ﴿ **وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَ لِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) (سورة العنكبوت: 23).

وقال تعالى : ﴿ **وَ لاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ** ﴾ (سورة يوسف: 87).

وتطبيقا لأمر الله تعالى, على المسلم أن لا ييأس أبدا, بل يجتهد ليحرز فهما أعمق لكل ما يدور حوله من خلال التفكر والتأمل. وعندما يقابل المؤمن عقبة, فهي ترشده للنظر إلى الخير الذي يكمن وراءها؛ وعلى المؤمن أن يكون شجاعا صبورا حنونا مخلصا ورعا محبا باذلا نفسه. أي بمعنى آخر, إنها لحظات من الزمن من خلالها, يظهر المؤمن

ثقته بالله وتوكله عليه. وعندما يدرك أن أخلاقه تلك سوف تجعله يفوز بالجنة بفضل من الله تعالى, فإن ذلك سيمنحه مصدرا إضافيا للسعادة والسرور.

فالإنسان الذي امتحن في الدنيا وتحمل الصعاب بحزم وثبات, يشعر بقيمة أكبر للنعم التي تعطى له في الجنة, وبالتالي, ينعم بها بلذة أعمق. ومن المهم التذكر أن الذي لم يمر بالعسر لن يستطيع تقدير اليسر؛ وحتى لو فعل ذلك, فهو لن يشعر أبدا به بذاك العمق الذي يشعر به من قاسى وتحمل المصاعب. وبالتالي, فكل ما يعانيه المؤمن في هذه الدنيا سيكون له سببا للسعادة في الآخرة.

والمهم أن يكون الإنسان صبورا حكيما عاقلا متوازنا متسامحا عطوفا، وبإيجاز متحليا بصفات المؤمن النبيلة. فالأخلاق التي تجلب له سعادة استثنائية لا تأتي إلا من الإيمان. ثم يكون جزاؤه بإذن الله تعالى, سعادة أخرى دائمة في الآخرة.

أيما مصيبة تصيب الإنسان فهي من نفسه

إنّ الذين يكونون بعيدين عن التمسك بالخلق القرآني عادة ما يشتركون في سمة أخلاقية معينة، فعندما تسير أمورهم حسبما يريدون, يعتقدون أن ذلك من أنفسهم ويصابون بالغرور. ولكن، عندما تحدث لهم مصيبة, فهم على الفور يبحثون عن جهة ما ليلقوا عليها اللوم. ولكن, الله تعالى هو العادل, وكما تشير إلى ذلك الآية الكريمة التالية, فالإنسان هو المسؤول في النهاية عن كل ما يصيبه من مصائب، قال تعالى: ﴿ **مَا**

أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَة فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَة فَمِنْ نَفْسِك وَ أَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا ﴾ (النساء: 79).

ويمدنا القرآن الكريم بأمثلة كثيرة ليبين لنا ذلك الأسلوب المنحرف الذي ينظر به الكافرون إلى كل ما يحصل لهم.

ففي سورة الأعراف يخبرنا الله تعالى أن فرعون و من والاه عزوا ما حصل لهم من شرّ إلى موسى عليه السلام و أتباعه. بينما هم أنفسهم كانوا مصدر الشر والخبث: ﴿ **فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذه وَإِنْ تُصبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُم عِنْدَ اللهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ (سورة الأعراف: 131).

وكما يوحي لنا المثال السابق, فهؤلاء البعيدون عن خلق القرآن يبحثون عن أحد ما ليلقوا عليه الوزر ويتجاهلون زلاتهم وعيوبهم، ويحاولون أن يتهموا الصالحين بالسوء والشر. بينما- ومثلما ينبهنا الله تعالى في الآية السابقة - هم أنفسهم المسؤولون عن السوء. وكان هؤلاء ينظرون إلى الشر على أنه خير و إلى الخير على أنه شر, إذن فليس لديهم إلا أنفسهم ليلوموها.

سوء الفهم للقدر

يسعى الإنسان طوال حياته في التخطيط لمستقبله ولرسم أهداف بعضها بعيد وبعضها الآخر قريب. وفي بعض الأوقات, تسير تلك الخطط كما هو مخطط لها. و لكن, في أوقات أخرى, قد تتعثر بسبب تطورات غير متوقعة. و هؤلاء البعيدون عن تعاليم الإسلام يعزون تلك العوائق

للمصادفات، بينما في الحقيقة, ليس هناك شيء اسمه مصادفة. أي إنّ كل ما يقابله الإنسان من أحداث في هذه الحياة قد قدره الله تعالى له في قدره. وهذه الحقيقة جلية في قوله تعالى: ﴿ **يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاء إِلَى الأَرْضِ** ... ﴾ (سورة السجدة: 5). وقال تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾ (سورة القمر: 49).

فمن الممكن للإنسان أن يفكر تفكيرا خاطئا خلال مسار يومه فيعتقد أنه يفعل فقط ما يخططه لنفسه. بينما الحقيقة أنه يطاوع القدر المحدد له من الله تعالى. فحتى لو اعتقد إنسان ما أنه قد تدخل في وضع وغير بالتالي مسار قدره, فهو في الواقع لا يزال مجددا يتحرك في لحظة أخرى قد سبق وقدرت له في قدره. لا شيء من لحظات حياتنا يحدث خارج إطار القدر. فقد يصاب إنسان بغيبوبة ويموت بسببها على الفور لأن الموت قد قدر له في ذلك الوقت، ويتعافى الآخر بعد شهور في حين أنّ هي الحالة نفسها، وهذا أيضا قدره قد أخر وفاته.

بالنسبة إلى الإنسان الذي لم يع بحق أهمية القدر, كل الأحداث بالنسبة إليه هي حصيلة حادثة ما أو مصادفة عبثية. فهو يعتقد بشكل خاطىء ان كل شيء في الكون يتحرك مستقلا عن بعضه البعض. وهذا ما يفسر موقفه عندما يصاب بفاجعة, فهو يشير إليها مباشرة بكونها "مشؤومة".

فالكائن البشري محدود في حُكمه وقدرته على التمييز؛ ذلك أنه حبيس الزّمان والمكان. ومن جانب آخر فكل ما يقع للإنسان بلا استثناء قد رتبه الله تعالى, مالك "الحكمة المطلقة" الذي هو سبحانه غير محدود

بزمان أو مكان.

قال تعالى: ﴿ **مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَ لاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ** ﴾ (سورة الحديد: 22).

و بالتالي, فكل ما يتوجب على الإنسان عمله هو أن يُخضع نفسه للقدر المرسوم له من خالقه, مدركا أن كل شيء سيرجع بالخير في النهاية. وفي الحقيقة, إن هؤلاء ذوي الإيمان الصادق يقضون كل لحظة من حياتهم بالاعتراف والتسليم لحقيقة أن كل ما يحدث إنما هو جزء من قدرهم, وأن ذلك الحدث أو الأمر ما وضع إلا لسبب. فهم دائما منتفعون من تلك النظرة الإيجابية, و في النهاية سيجدون هذا الخير. ولقد أوصى الله بهذا الخلق النبيل والإذعان الخالص التام في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَ عَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ (سورة التوبة:51).

وسواء كان الأمر خيرا أم شرا فإنّ الإنسان لن يستطيع أبدا أن يمنع حدوثه وقد قدر وقوعه من قبل. و إذا ما رأى الخير في كل ما يحدث, فعندئذ سوف ينتفع كامل حياته وإلا فهو لن يجني سوى الندم والأذى لنفسه. إن اللّوعة والتمرد والجحود لن يغيروا من القدر شيئا. فمسؤولية الإنسان في هذه الحياة تتمثل في الاستسلام والإذعان لعدل الله المطلق وللقدر الذي وضعه تعالى له, وأن ينظر إلى كل الوقائع على أن الخير فيها على كل حال, وبذلك يستقبل قدره بخضوع واطمئنان.

اجتهاد الشيطان لمنع الإنسان من إدراك الخير

يخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم أن الشيطان جاحد عاص. ومثلما نبهنا القرآن فالشيطان يحاول بكل السبل إزاحة الإنسان عن طرق الخير وإردائه في مهالك الشر والفساد. ولعل من أكثر الطرق التي يستغلها الشيطان هي إعاقته عن رؤية مواطن الخير في الأحوال والأحداث. وهو يعتمد هذا السبيل ليقنطه من ربه ويلقي به في ظلمات المعصية والجهل والجحود.

إن الذين يفشلون في فهم جمال الخلق القرآني, هم هؤلاء البعيدون عن تعاليم الإسلام الذين يقضون حياتهم في الجري خلف أهداف تافهة, وهم غافلون عن اليوم الآخر. وهؤلاء معرضون لوساوس الشيطان وهمزاته.

إنّ الشيطان يطرب لضعف الإنسان، فيهمس له بالحيل المضللة ؛ فيدعوه للتمرد على الله تعالى وعلى القدر. فمثلا, قد لا يجد أحدنا صعوبة في تذكير جاره الذي ألم به حادث سير بحقيقة أنّ ذلك يشكل جزءا من قدره. بينما قد يعجز في النظر إلى الموقف نفسه هذه النظرة الواعية عندما يتعلق الامر به هو نفسه أو أحد من أسرته. ومن خلال تأثير الشيطان, سيجد أنه من السهل تبني سلوك متمرد. هذا لأن على الواحد منا أن يدرّب قلبه حتى يستطيع أن يكافح ليرى الخير في الأحداث, ويبدي إذعانه ويضع كامل ثقته في الله تعالى. وأما الفشل في إقناع الضمير والقلب بذلك فهو قد يقود إلى اتباع سلوك منحرف تائه.

إنّ جهود الشيطان لإعاقة الإنسان عن رؤية الخير يمكن التعرف عليها في كل الظروف بأشكالها المختلفة. ووسوسته أيضا تمنع البعض من رؤية الخير فيما يقومون به من أعمال. فالشيطان مثلا يسعى جهده ليغرس في النفس الخوف من الفقر عند من يعزمون على الإنفاق من أموالهم في سبيل الله، وقد قال الله تعالى في هذا الموقف: ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ وَ اللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَ اللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (سورة البقرة :268).

لكن في واقع الأمر فإن كل تلك المشاعر والأحاسيس هي إلا مشاعر عقيمة لأن خطط الشيطان تلك المليئة بالغدر لن تستطيع بأي وسيلة التأثير على المؤمن الصادق, حيث أن هدف المؤمن من الإنفاق ليس لمنفعة في الدنيا ولا لإرضاء نفسه, بل إن هدفه الأسمى هو كسب رضى الله تعالى ورحمته و الفوز بالجنة. و لهذا السبب, فالشيطان لا يستطيع أن يضلل المؤمنين بتطلعات عقيمة بلا فائدة. وقد جاء في القرآن الكريم أن الشيطان لن يستطيع فرض تأثيره على المؤمنين: ﴿ **وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ باللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ** ﴾ (سورة الأعراف :200-201).

علينا أن نفهم أن الشيطان يستخدم أسلوبين لإعاقة الإنسان عن الإقبال على أعمال الخير. أولهما, أنه يناضل ليوقف عملا طيبا نافعا ويصور الجري وراء المنافع الدنيوية على أنها الهدف الوحيد في الحياة. وأما ثانيهما , فهو يجتهد بكل ما أوتي من قوة ليعيق الناس عن إدراك

الخير الكامن في الأحداث خاصة عندما يصاب الإنسان بمحنة, فهو يصورها على أنها "شر", ويغويه ليتخذ سلوكا متمردا تجاه الله تعالى.

إن نعم الله التي أسبغها على الإنسان لا تحصى، فمنذ لحظة ولادته وهو محاط بعناية الله وفضائله، منها ما بدا ومنها ما خفي. ولهذا فإن المؤمنين الذين يتخذون من خالقهم فقط حافظا يتوكلون عليه ويضعون كامل ثقتهم به, وعندما يصابون بحدث ظاهره شرّ يصبرون لأنهم يدركون أن وراءه الخير حتى وإن لم يستطيعوا أن يتبينوا الغاية الإلهية في الحال. ومهما أصابهم من أحداث فهم أبدا لن يتذمروا أو يعصوا، فهم يثقون جيدا أن الحدث الذي يبدو في ظاهره سيئا سوف يتمخض في النهاية عن الخير. وقد يتبين لهم بفضل الله تعالى أنّ تلك الأحداث التي عاشوها كانت تمثل نقطة تحول كبرى في حياتهم كلها وهي التي سوف تنجيهم عند الله في الآخرة.

أمثلة من حياة الأنبياء و المؤمنين

إن الكفاح ضد الكفر والشرك شكل جزءا كبيرا من جهود الأنبياء والمؤمنين المخلصين الذين جاؤوا من بعدهم. وعباد الله هؤلاء واجهتهم أحداث جمة كانت في ظاهرها سلبية، ولكن عندما دخلوا في غمارها وخاضوا تجربة تلك الابتلاءات تبين صدق معدنهم وسلامة إيمانهم؛ فمع شدة البلاء كانوا يحسون بالأمن والطمأنينة، فقد كان الاعتقاد الراسخ لديهم أنه لاشيء في الكون يسير في استقلال عن مشيئة الله تعالى. وهذه المعرفة هي التي أعانتهم على تبني موقف إيجابي ...

لقد عاش رسل الله تعالى وأتباعهم من المؤمنين حياتهم واثقين من أن الله سوف يكون معهم ويشد أزرهم في أوقات الشدة, وأن كل شيء سوف يسفر عن الخير لهم, فبنوا على هذه الحقيقة جميع أعمالهم وتطلعاتهم . إن تلك الميزة السامية المستمدة من إيمان عميق, تضع النموذج الأمثل لكافة المؤمنين.

اعتداءات الكافرين بألسنتهم

نفهم مما قصه علينا القرآن الكريم أن المؤمنين واجهوا زمرًا من

الكافرين والمنافقين الذين اعتمدوا كل وسيلة وطريق ليمنعوهم عن المضي في طريقهم والعدول عن دعوتهم. والقرآن الكريم ينقل لنا صورة واضحة عن اللغة المهينة التي كانوا يتعاملون بها مع عباد الله المؤمنين: ﴿ **لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُم وَأَنْفُسِكُمْ وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾ (سورة آلعمران: 186).

في هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى أن الكذب والبهتان والوشاية التي بدت سيئة للمؤمنين, هي في الحقيقة, خير.

وفي آية أخرى يورد الله تعالى هذه الحقيقة من خلال نموذج آخر وقع في عهد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم, قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ (سورة النور:11) .

إنّ تلك الظروف التي واجهها المؤمنون في الماضي كانت الوسيلة التي استخدمها الكافرون بحرص ليصرفوا بها المؤمنين ويصدوهم عن التمسك بدين الإسلام. ومع ذلك فإن المؤمنين ظلوا ثابتين, مطمئنين إلى حقيقة أن هذه المحاولات السافلة سَتؤُول في النهاية لصالحهم, وأن قضيتهم سوف تنتصر. ولهذا فهم ردوا على تلك الوشايات والاعتداءات اللفظية بكل اعتدال وحكمة؛ لم ينسوا ولو للحظة أن الصبر والثقة بالله كانت هي التي توصلهم إلى الفوز والنجاح.

واقتداء بتلك النماذج من الماضي على المؤمنين اليوم أن يخضعوا

أنفسهم لقدر الله, وأن يوقنوا بحق أنه ما من شيء يحدث إلا وفق غاية إلهية. فالمؤمن الذي يحيى بهذه المبادئ سينال أيضا أعظم الجزاء في الدنيا لأن الله تعالى يعد عباده الذين يتوكلون عليه بالمدد والعون، ويطمئنهم بأنهم لن يقعوا بحوله تعالى في "مأزق" أبدا, قال تعالى: ﴿ **إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ (سورة آل عمران:160).

اعتداءات الكافرين الفعلية

على مر التاريخ كانت المجتمعات الضالة الكافرة تعتقد أن التزام المؤمنين بدين الله وتطبيقهم لمبادئه ونشرهم لرسالته يمثل تهديدا لهم. ولهذا, ومن أجل تثبيط المؤمنين وإضعاف معنوياتهم, استخدموا الأساليب الشريرة مثل القدح والخداع. وفي أحيان كثيرة أخرى, لم يترددوا في استخدام أساليب أكثر شدة وقسوة, مثل التهديد والتعذيب والأسر أو إخراج هؤلاء المؤمنين من بيوتهم.

إنّ ما تعرض له المؤمنون من سوء معاملة في خضم صراعهم مع الكافرين هو دليل واضح على غطرسة هؤلاء الكافرين. ولكن المؤمنين كانوا يدركون دائما الخير في ذلك الإيذاء, موقنين أن الله تعالى كتب لهم ذلك لحكمة يعلمها. فهم كانوا على علم تام أنّ البر هو الصبر و التوكل على الله تعالى. والله تعالى يصف لنا شيمتهم تلك على النحو التالي: ﴿ **لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَ الْمَلاَئِكَةِ وَ الكِتَابِ وَ النَّبِيِّينَ وَ**

آتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّه ذَوِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائلِينَ وَ فِي الرِّقَابِ وَ أَقَامَ الصَّلاَةَ وَ آتَى الزَّكَاةَ وَ المُوفُونَ بعَهْدهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ أُولَئِكَ الذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (سورة البقرة :177)

إِنَّ بَعض هذه السمات الإيجابية للشخصية المؤمنة قد ذكرت من خلال قصة وردت في سورة الأحزاب, حيث تقص علينا حادثة وقعت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم. ففي معركة الأحزاب ابتلي المؤمنون ابتلاء شديدا عندما اجتمع عليهم الكفار من كل جانب. وفي ظروف صعبة كتلك, ابتدع المنافقون والذين في قلوبهم مرض العديد من الأعذار الواهية, و بالتالي كشفوا على حقيقتهم. وفي هذه الأوقات العسيرة عرف المنافقون بعد أن ظلوا لفترة , مندسين في مجتمع المؤمنين. وتقهقر المنافقون الذين كانوا مثل السرطان الذي ينخر في الجسم, وتخلص منهم المؤمنون الصادقون, ومع ذلك فقد تواصل دعم الله تعالى وتأييده لعباده.

فبينما تصرف المنافقون بمهانة, كان المؤمنون على يقين بإدراك الخير في النهاية في ما واجهوه من صعاب. لقد أدركوا أنهم يمرون بما أخبرتهم به آيات القرآن الكريم, وبالتالي, ازدادوا إيمانا وإخلاصا لله تعالى: **﴿ وَ لَمَّا رَأَى المُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا الله وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ الله وَرَسُولُهُ وَ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَ تَسْلِيمًا ﴾** (سورة الأحزاب: 22).

إنّ هذا النموذج يشير أيضا إلى أمر مهم وهو أن الظرف القاسي

الصعب قد يخلص في النهاية إلى أن يكون نعمة عظيمة للمؤمنين بينما يقود الضالّين الذين فشلوا في إدراك الخير إلى مزيد من الجحود. وهنا فإن هذه الأحداث قد ساهمت في إحباط جهود الكافرين, إضافة إلى تمييز الخبيث من الطيب من المؤمنين. فسورة الأحزاب تبين كيف أنّ الكافرين فشلوا في إحراز النصر وعادوا أدراجهم فقط بما يحملوه من حنق وكره بغيض, قال تعالى: ﴿ **وَ رَدَّ اللهُ الَّذينَ كَفَرُوا بغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَ كَفَى اللهُ المُؤْمِنينَ القِتَالَ وَ كَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا** ﴾ (سورة الأحزاب: 25)

هجرة المسلمين

إنّ التخلّي عن المال والممتلكات إذا لزم الأمر, والهجرة إلى مكان آخر هي نوع من أنواع العبادة كما ذكر في القرآن الكريم ولهذا, فإن المسلمين الذين يهاجرون في سبيل الله يرون دائما الخير في ذلك الإخراج القمعي لهم من بيوتهم. فالذين يهاجرون في سبيل الله قد ذكروا في القرآن الكريم من بين هؤلاء الذين بإمكانهم أن يرجوا رحمة ربهم, قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَ اللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ (سورة البقرة:218).

من مظاهر الجهل الاعتقاد بأن الفرار من الموطن بسبب الظّلم، والاغتراب في بلد آخر بسبب القهر يعتبر بليّة ومصيبة. وهذا الظن يقود أصحابه إلى الوقوع في الإحباط. أما المؤمنون فهم على قناعة بأنهم سوف لن يلقوا القبول من قبل الكافرين والمنافقين. فمثل هذا الاضطهاد

هو في الحقيقة تجلّ لحقيقة آيات الله تعالى. ومن هنا فإن المؤمنين الذين يهاجرون أو الذين يلقى بهم بعيدا عن أوطانهم يواجهون دوما ظروفا كتلك بحماس كبير.

إنّ الأخلاق العالية الرفيعة للمؤمنين الذين عاصروا نبي الله سيدنا محمد صلى الله علية وسلم, وإيمانهم الراسخ هو أفضل نموذج للمؤمنين في هذا العصر. فهمّهم كسب رضى الله تعالى من خلال طاعة النبي صلى الله عليه وسلم, وهذا ما جعلهم على استعداد لتحمل جميع أشكال الصعاب عن طيب خاطر. فهم لم يترددوا في ترك أوطانهم وتخليهم عن كل ما يملكون عندما اقتضت مصلحة المسلمين ذلك.

وفي مقابل ذلك, وعدهم الله تعالى بالجنة والرحمة والرضوان وذلك جزاء تمسكهم بأخلاق القرآن الكريم.. ولاشك أن الله سوف يصدق وعده لعباده! قال تعالى: ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعَ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَ قُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارِ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَ اللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ** ﴾ (سورة آل عمران: 195)

وإضافة إلى ثواب الله تعالى في الآخرة, فإن الله تعالى يبشرهم بالرزق الكثير في الدنيا. وقد ذكر الله تعالى ذلك في سورة النساء فقال: ﴿ **وَ مَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَ سَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَ كَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا** ﴾ (سورة النساء:100).

وقال تعالى: ﴿ **وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ لأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ (سورة النحل :41–42).

الرّسول وتوكّله على الله تعالى

لقد واجه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم شأنه شأن جميع الأنبياء الآخرين, العديد من الصعاب طوال حياته, فكان النموذج المثالي لكل المسلمين من خلال صبره وإيمانه بالله تعالى. وهناك مواقف كثيرة تبين عن سمو أخلاقه وعلو همته ذكرها لنا القرآن الكريم.

فعندما غادر النبي صلى الله عليه وسلم مكة, تبعه الكافرون بغرض قتله. فلجأ إلى الغار مع صاحبه أبي بكر الصديق. وأثناء تقصيهم تمكن الكفار أخيرا من الوصول إلى مدخل هذا الغار. وفي هذه اللحظة العصيبة, نصح سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام صاحبه بأن لا يحزن وذكره بالتوكل على الله.

قال تعالى: ﴿ **إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَ اللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (سورة التوبة: 40).

فالذي جعل النبي صلى الله عليه وسلم لا يشعر بالخوف أو القلق في تلك اللحظة, وحياته في خطر كبير,إنما هو توكله على الله و ثقته به

وإدراكه أن الله تعالى ما قضى شيئا في قدر أحد إلا لهدف وغاية. وأخيرا وصل سالما لغايته أي المدينة المنورة. ومن هنا بدأت الهجرة التي كانت أعظم حدث في تاريخ الإسلام.

الخلق السامي لموسى عليه السلام

يوضح لنا القرآن الكريم ببيان مفصل صراع سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون, الذي تجبر فكان من أكثر الحكام طغيانا في التاريخ. لقد رد فرعون على رسالة الله التي أوصلها إليه موسى عليه السلام بالتهديد و الوعيد . إنّ سمو أخلاق موسى عليه السلام وثقته بالله وتوكله عليه عندما كان وجها لوجه مع فرعون الذي لجأ إلى كل وسيلة ليبعده عن سبيل الله, لهو خير مثال يحتذى به للمؤمنين جميعا.

و القرآن الكريم يوضح تلك الفترة من بعثة موسى عليه السلام ، ففرعون الذي حكم مصر في ذلك الوقت مارس قهر استبداديا على بني إسرائيل. ومن ناحية أخرى, كان سيدنا موسى عليه السلام و قومه أقلية في البلاد. وهكذا ومن وجهة نظر الجاهل, الذي يحكم على الأشياء فقط من ظاهرها لاعتقاده بأن الغلبة دائما للأقوى, قد يتوقع أنّ الفوز لفرعون. لكن, لم يكن الأمر كذلك, بل على النحو الذي وعد به الله تعالى: ﴿ **كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ (سورة المجادلة :21).

والله تعالى حقق وعده الذي وعده لرسله ومنح سيدنا موسى عليه السلام النصر على فرعون. فالله تعالى أيده بنصره وشد أزره بأخيه

هارون. وبالإضافة إلى ذلك وهب الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام معجزات كثيرة, و ميزه عن الخلق كافة أن كلمه الله تكليما. ومن هنا نستطيع أن نستخلص العبر من نضال سيدنا موسى عليه السلام. فهو يكشف بوضوح كيف أن ما قد يبدو سلبيا للمؤمنين, بإمكانه في لحظة أن ينقلب لمصلحتهم بإذن الله تعالى.

وتأتي هذه الحادثة لتثبت ذلك، حيث انطلق فرعون وجنوده ليمسكوا بموسى عليه السلام ورفاقه بعدما فروا من مصر. وما إن وصل بنو إسرائيل البحر حتى أوشك فرعون وجنوده على الإمساك بموسى ومن معه. و في تلك اللحظة, كانت كلمات سيدنا موسى عليه السلام مؤثرة ؛ مع أن فرعون وجنوده كانوا قد أصبحوا غير عاجزين عن الإمساك بهم, ولم يبق أمامهم من مفر, فهو لم ييئس من نصر الله تعالى لهم, فاحتفظ برباطة جأش كانت حقا مثالا يحتذى. وقد قص علينا القرآن الكريم هذه القصة كما يلي: ﴿ **فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَى الجَمْعَان قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ البَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ العَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ (سورة الشعراء :60–68)

لقد لفت الله تعالى نظرنا في هذه القصة إلى أخلاق سيدنا موسى عليه السلام المميزة طوال نضاله الشاق. فقد أبقى عقله على الدوام منشغلا بذكر نصر الله له, ورأى الخير في كل ما حصل له, حتى في

أحلك الظروف والأوقات التي مرت به, تمكن من غرس ثقته بخالقه وحرص على إخلاصه له وحده.

يوسف عليه السلام وثقته في الله تعالى

إنّ من أروع الأمثلة في القرآن الكريم التي تُضرب مثلا على تحول حدث ظاهره سلبي لخير المؤمنين هي قصة حياة سيدنا يوسف عليه السلام.

يوسف عليه السلام, منذ صباه و طوال حياته, عرف بسلوكه الناضج في المحن وإخلاصه القوي لله تعالى. وسلوكه في الظروف الصعبة كان أعظم مثل للمؤمنين. سيدنا يوسف عليه السلام، كان الله تعالى يرعاه، وكان هو يلتمس الخير في كل ما ألم به، و كان على إدراك أن كل ما يلقاه من عَنَتٍ فهو من الله تعالى. وبالتالي, طوال حياته, نظر إلى كل مناسبة على أنها اختبار، وبقي دوما مخلصا ومتيقظا.

إن أول ما تعرض له سيدنا يوسف عليه السلام هو المعاملة الظالمة من قبل أخوته الذين شعروا بالغيرة منه. لقد ألقوه في بئر وأبعدوه عن أبيهم. لكن الله تعالى حفظه بمرور ركب من المسافرين, فأنقذوا هذا الشاب الصغير من البئر وباعوه لسيد من أسياد مصر. تأثرت زوجة هذا السيد بجمال يوسف عليه السلام, "فحاولت إغواءه" كما يقص علينا القرآن الكريم. وهكذا, عومل يوسف عليه السلام مجددا بجور وظلم. وهذه المرة اتهم ظلما من قبل هذه المرأة. ومع أن الاستقصاء الذي أجري في الموضوع أظهر براءته عليه السلام إلا أنه سجن: ﴿ **ثُمَّ بَدَا لَهُمْ**

مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ (سورة يوسف:35).

فيوسف عليه السلام قد أوقع به فقط لأنه عفيف الخلق. ونتيجة لهذا الاتهام, أمضى يوسف عليه السلام في السجن مدة طويلة. وصبر في وجه كل صعوبات الحبس, واضعا ثقته في الله تعالى. وكما قص علينا القرآن الكريم, فبالطريقة التي قاد بها نفسه وإذعانه الأمثل لله تعالى , كان حقًّا مَثلا يحتذى به لدى المؤمنين كافة.

حظي يوسف عليه السلام, بالجزاء العظيم, في هذه الحياة الدنيا والآخرة, جزاء له على صبره وثقته بالله, وإدراكه للخير في كل ما حصل له. فقد ميزه الله بسلطة عليا على خزينة الدولة وجعله حاكما على هذه البلاد. وإدراكه للخير في كل ما حدث له ودعاؤه الله أخبرنا به الله في محكم تنزيله: ﴿ **وَرَفَعَ أَبَوْيه عَلَى العَرْش وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَت هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جعلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بي إِذْ أَخْرَجَني مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ البَدْوِ مِنْ بَعْد مَا نَزَغ الشَّيْطَانُ بَيْني وَ بَيْنَ إِخْوَتي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ رَبِّ قَدْ آتَيْتَني مِنَ المُلْك وَعَلَّمْتَني مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَاديث فَاطِرَ السَّمَاوَات وَالأَرْض أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾ (سورة يوسف:100-101)

لقد كان في هذه القصة أعظم مثل للجزاء الذي يناله المؤمنون مقابل إخلاصهم و توكلهم على الله تعالى. فمهما حدث للمؤمن الصادق من أمر, عليه أن يناضل ليمسك بالغاية وراء تلك الأحداث. عليه أن يلجأ إلى الله و يدعوه إلى مثل هذه البصيرة. على المسلم أن لا ينسى

أبدا أن أي حدث, صغيرا أو كبيرا, مما قد يقلقه في مسار حياته, لابدّ أن تكون وراءه حكمة, فالقضاء والقدر سنة الله في الأشياء ولا تبديل لها. فالله تعالى إنما يضع حكمته في كل شيء وفيها الخير للمؤمنين. وقد يكشف الله تعالى, هذه الحكمة وقد يبقيها كامنة والمؤمن الخير من يوقن بوجودها. وعلى المؤمن أن يصبر على كل حال ويكون لسان حاله يقول "لعله خير".

بشارة الله تعالى وتأييده للمؤمنين

لقد قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ **وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (سورة الرعد:1), أي أن الكافرين يشكلون في الغالب السواد الأعظم من البشر على هذه الأرض. فهم دائما يفوقون المؤمنين عددا. لهذا السبب, فهؤلاء الجاهلون يعتبرون أنفسهم على المنهج الصحيح. إنّ مقدار الثروة المادية تخدعهم بشعور زائف من الأمان. فهم يدركون فقط ظاهر الأمور, مما يجعلهم يخطئون الظن بأنهم الغالبون. ولكن, تبقى هناك حقيقة لم يدركوها؛ ألا وهي بشارة الله تعالى وتأييده للمؤمنين: ﴿ **وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً** ﴾ (سورة النساء : 141).

وكما تبيّن الآية الكريمة, فإن الله تعالى يضع كل شيء لمصلحة المؤمنين ويؤمن لهم الدعم بطرق شتى. ففي سورة الشرح, يخبر الله تعالى المؤمنين بأمر مهمّ, وهو أن أمر المسلم دائما خير، فالله تعالى جعل له مع كل عسرا يسرا. والله الذي يجعل لكل داء دواء, ينزل اليسر بعد العسر، قال تعالى: ﴿ **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** ﴾ (سورة الشرح:5-6).

فقط المؤمنون هم من يعون هذا التأييد والعون الممنوح من الله تعالى. فمهما يقابلهم من أمر في حياتهم, فهم ينعمون بالطمأنينة وراحة البال المستمدة من إدراكهم بأن الله يعينهم ويحميهم. والله تعالى وعد عباده فقال: ﴿ **وَ الله أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَ كَفَى بِاللهِ وَلِيًّا وَ كَفَى بِاللهِ نَصِيرًا**﴾ (سورة النساء:45).

وفي المقابل فإن المنافقين يسكنهم الفزع والخوف والرعب. فهم يشعرون بقلق دائم لغياب إيمانهم بالله تعالى, أو لإشراكهم به, ولاعتقادهم بأن الأحداث إنما تقع بالمصادفة. هذا في الواقع هو الخوف الذي يبثه الله تعالى في قلوب الذين يحاربون المؤمنين, قال تعالى : ﴿**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ**﴾ (سورة الأنفال:12).

إنّ الدعم و التأييد الذي يحظى به المؤمنون من خالقهم يستمر معهم طوال حياتهم. وعلى مر العصور والأزمان, مد الله تعالى المؤمنين بعونه بطرق مختلفة. ففي بعض الحالات, منح تعالى أنبياءه المعجزات, بينما في البعض الآخر, أيد المسلمين بجنود لم يروها, وملائكة, أو من خلال عوامل الطبيعة الأخرى. حتى إنه في بعض الأحيان وقعت أمور لا يمكن حدوثها. وها هي بعض الأمثلة المذكورة في القرآن كما يلي:

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَ كَانَ الله بِمَا**

تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (سورة الأحزاب :9).

وقال تعالى : ﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ** ﴾ (سورة الأنفال:9).

وقال تعالى: ﴿ **قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ أُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَ اللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ** ﴾ (سورة آل عمران:13).

فشل المكائد التي تحاك ضد المسلمين

لقد لجأ الكافرون إلى جميع الأساليب المنحرفة في صراعهم ضد المسلمين. ولعل من أكثر الأساليب المستخدمة هي التضييق عليهم والتحالف ضدهم . وبها يعتقد الكافرون أنهم أقدر على النصر لكثرة عددهم. أما هؤلاء الذين نصبوا المكائد سرا، فقد فشلوا في تذكر أن الله يراهم وهو يتآمرون. فهم حتما غافلين عن حقيقة كون الله اقرب إليهم من حبل الوريد. و بالرغم من ذلك، سواء عليهم ما كشفوه و ما أسروه فالله تعالى يعلم "مَا فِي قُلُوبِهِمْ ". فهو تعالى يعلم كل ما توسوس به أفكارهم، و كل مكيدة و خطة يدبرونها.

وأن الله العليم يخبرنا أنه تعالى أحبط كيد الكافرين قبل أن ينفذوه. فمهما كانت عليه تلك الخطط من خداع و سرية، فإن كل ما نصب ضد المؤمنين من مكائد قد هوى منذ اللحظة الأولى.

قال تعالى : ﴿ **ذَلِكُمْ وَ أَنَ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ** ﴾ (سورة الأنفال :18) .

قال تعالى : ﴿ **وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَ عنْدَ الله مَكْرُهُمْ وَ إنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لتَزَولَ منْهُ الجبَالُ** ﴾ (سورة إبراهيم :46).

والله يخبرنا أن مثل تلك المكائد لن تضر المؤمنين بل إنها في النهاية ستنقلب عليهم هم أنفسهم، قال تعالى : ﴿ **اسْتكْبَارًا في الأَرْض وَ مَكْرَ السيئ وَ لاَ يَحيقُ المَكْرُ السيئُ إلا بأَهْله فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلا سُنة الأَولينَ فَلَن تَجدَ لسُنةَ الله تَبديلاً وَ لَنْ تَجدَ لسُنةَ الله تَحْويلاً** ﴾ (سورة فاطر:43).

المؤمنون يضعون كامل ثقتهم في هذه البشارة الإلهية (**أَن الله مُوهنُ كَيْد الكَافرينَ**)، مدركين لحقيقة أن عون الله ملازمهم، لذلك فهم يعيشون حياة ملؤها الطمأنينة والراحة. و كما بينا من قبل فبفضل توكلهم الدائم على الله فهم يدركون الخير والهدف الإلهي في كل ما يمر بهم من حوادث؛ وحتى ولو لم يتمكنوا من ذلك، فهم يؤمنون بكل ثقة أن ما من حدث إلا وسيخلص في النهاية ليكون خيرا للمؤمنين.

إنّ حزْبَ الله هُم الغَالبُونَ !

إن جزاء توسم الخير، حتى فيما يبدو سلبيا، والتوكل على الله تعالى، جزاء عظيم، قال تعالى : ﴿ **الذينَ قَالَ لَهُمْ الناسُ إن الناسَ قَدْ جَمعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إيمَانًا وَ قَالُوا حَسْبُنَا الله وَ نعْمَ الوَكيلُ فَانْقَلَبُوا بنعْمَة منَ الله وَ فَضْل لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَ اتبَعُوا رضْوانَ الله وَ الله ذُو فَضْل عَظيم** ﴾ (سورة آل عمران:173-174).

والآن لنذكر أنفسنا أن الغلبة قد تكون من حين إلى آخر مع الكافرين. ولكن، في الواقع، هذا مجرد امتحان من الله تعالى للمؤمنين . وكما بينا من قبل قد تكون غلبتهم جزءا من خطة سماوية تميز المؤمنين الصادقين من غيرهم من ضعيفي الإيمان. إن المؤمنين هم الذين يتوكلون على الله تعالى، و يصبرون و يرون الخير في كل ما يحدث يثبتون بكل وضوح، إخلاصهم و ثقتهم بالله تعالى. ولهذا ، فهم الذين سيجنون رضى الله تعالى في هذه الدنيا والآخرة، فالمنتصرون في النهاية هم المؤمنون.

قال تعالى: ﴿ **وَ مَنْ يتَوَل الله وَ رَسُولَهُ وَ الذينَ آمَنُوا فَإن حزْبَ الله هُمْ الغَالبُونَ** ﴾ (سورة المائدة :56).

الخاتمة

المؤمنون هم هؤلاء الذين يحيون بإذعان وتسليم خالص لله تعالى, مدركين أنه ما من شيء, مهما كان دقيقا إلا وقد خلقه الله تعالى وقدّره حسب خطة معلومة. ومع أن المؤمنين قد يتعرضون لكافة أشكال الصعاب والمحن خلال حياتهم, إلا أنهم لن يشعروا أبدا بالأسف أو يقولون "ليت هذا الأمر ما حدث ...."، فهم يؤمنون أنه لا بد وأن يكون هناك خيرا وهدفا سماويا وراء كل حدث. و لهذا فهم يحيون في راحة و طمأنينة, حتى في أحلك الظروف. بينما الكافرون الغافلون عن هذه الحقيقة, يشعرون بقلق عظيم عندما تواجههم مواقف سيئة حسب نظرهم، فسرعان ما يجتاحهم اليأس و القنوط. والحقيقة هي أن الإنسان بطبعه يبحث دوما عن العون والأمن بسبب ما قد تحدثه له المصاعب و المحن والمتاعب من آلام جسدية ونفسية. لكن هذه المصاعب والمحن والمتاعب التي يتعرض لها من انقطعت صلته بالله تعالى تصبح كوارث عليه فلا يرى فيها سوى الشر والوبال، و هو لن ينجح أبدا في تحرير نفسه من الخوف سواء من المستقبل أو من الموت أو من المرض أو الفقر.

إن الخلاص الوحيد للإنسان هو في تذكر أن الله تعالى قد خلق ووضع كل حدث لهدف سام ولخير مؤكد. والمؤمن يتوكل على الله تعالى حق توكله عندما يبقى مدركا لهذه الحقيقة، و يسلك بنفسه مسلك العابد المخلص، ولكن هذا لا يعني أن يكون صامدا فحسب خلال هذه المحن بل يصبر و يحتسب. ومن خصائص المؤمن الأخرى دوام التقرب إلى الله تعالى بالصلاة وحسن التوكل عليه, واليقين بأن ما يقع هو من عنده تعالى.

في هذه الحياة الدنيا، يبتلى المؤمن بأنواع عديدة من الامتحانات وهو يسير نحو الله تعالى للفوز بالجنة. و خلال هذه الامتحانات, يسعى المؤمن بخطى ثابتة وعزم كبير لكسب مرضاة الله تعالى و جنته، وتخليص نفسه من عذاب جهنم، وهو في أثناء ذلك يرى الخير في كل ما يقع له ومن حوله. ومع أنه قد لا يدرك الخير إلا أنه يتذكر دوما أن الله تعالى هو العالم بحكمة كل شيء. فالمؤمن جاء إلى هذه الدنيا ليعمرها حينا من الوقت, وعندما تحين ساعة انتقاله إلى الآخرة يأتيه الأمر بذلك. والله تعالى يخبرنا عن هذه النهاية الحتمية التي ستقع لجميع عباده المتقين العاملين العابدين, قال تعالى: ﴿ **وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجَنَّة زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَ قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَ قَالُوا الحَمْدُ لله الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّة حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ* وَ تَرَى المَلائكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِيلَ الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ** ﴾ (سورة الزمر:73-74)

انهيار الدّاروينية

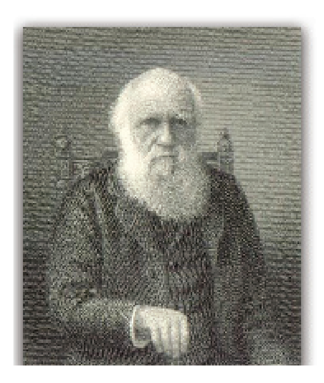
لقد ظهرت النظرية الدّاروينية، يعني نظرية التطور بهدف رفض فكرة الخلق، بيد أنها لم تنجح في ذلك، واُعتبرت مجرد سفسطة خارجة عن نطاق العلم. وهذه النظرية تدّعي أن الكائنات الحية تولدت بطريق المصادفة من الكائنات غير الحية، وقد تم ردها ونقضها بعد أنّ أثبت العلم أنّ الكون والكائنات الحية تحتوي على أنظمة غاية في الإعجاز. وعلى هذا النحو أثبت العلم كذلك أن الله تعالى هو خالق الكون وخالق جميع الكائنات الحية.

وهذه النظرية لا تقوم سوى على مناقضة الحقائق العلمية والأكاذيب التي ترتدي لباس العلم وجملة من التزييفات، وقد تم القيام بحملة واسعة على نطاق العالم لكي تبقى هذه النّظرية قائمة على أقدامها، غير أن هذه الحملة لم تتمكن من إخفاء الحقيقة.

لقد تعالت الأصوات خلال الثلاثين سنة الماضية في دنيا العلم تبيّن بأن نظرية التطور تمثل أكبر خديعة في تاريخ العلم. وقد أثبتت الأبحاث التي أجريت بشكل خاص اعتبارًا من عام 1980 بأنّ الإدعاءات الدّاروينية عارية تماما من الصّحة، وقد تم التصريح بذلك من قبل العديد من كبار رجال العلم. ففي الولايات المتحدة بشكل خاص، صرح الكثير من علماء البيولوجيا والكيمياء الحيوية وعلم الحفريات وغيرها من العلوم الأخرى بأن الداروينية وصلت إلى طريق مسدود وأنّ أصل الكائنات الحية هو الخلق. واليوم تؤكد التطوّرات العلمية بأن الكون وجميع الكائنات الحية قد خُلقت من قبل الله تعالى.

لقد تناولنا مسألة انهيار نظرية التطور ودلائل الخلق في مواضع كثيرة من أعمالنا، وسوف نُواصل ذلك في أعمال أخرى. ولكن بالنظر إلى الأهمية البالغة التي يكتسيها هذا الموضوع رأينا أنه من الفائدة إيراد ملخص لذلك في هذا الموضع أيضا.

الانهيار العلمي للنظرية الداروينية



شارلز داروين

بالرغم من أن هذه النظرية تعود في جذورها إلى التاريخ الإغريقي القديم، إلا أنها شهدت أوسع انتشار لها في القرن التاسع عشر . كان أهم تطور شهدته النظرية هو صدور كتاب تشارلز داروين "أصل الأنواع" الذي صدر عام 1859. في هذا الكتاب ينكر داروين أن الأنواع المختلفة على الأرض قد خلقها الله. يقول داروين أن جميع الكائنات الحية لها جد مشترك وأنها قد تنوعت واختلفت بسبب اختلافات طارئة متدرجة أتت عليها عبر الأزمان.

وكما يقر داروين نفسه، فإن نظريته لا تقوم على أي حقيقة علمية ثابتة، بل إنها مجرد "إفتراض". علاوة على ذلك، يعترف داروين في فصل مطول من كتاب بعنوان "المصاعب التي تواجهها النظرية" أن النظرية تتهاوى أمام العديد من الأسئلة الحرجة.

عقد داروين آماله على الاكتشافات العلمية التي كان يظن أنها ستزيل العقبات التي تواجهها نظريته، إلا أن ما أثبتته هذه الاكتشافات جاء عكس ما تمناه الرجل.

وتظهر هزيمة داروين أمام العلم الحديث من خلال ثلاث نقاط رئيسية:

1-لم تتمكن هذه النظرية بأي وسيلة من الوسائل أن تفسر كيف نشأت الحياة على وجه الأرض.

2-لا يوجد أي اكتشاف علمي يدل على قدرة "التقنيات التطورية" التي تفترضها النظرية على التطور في أي حال من الأحوال.

3-مايثبته السجل الإحاثي هو عكس الادعاءات التي تقوم عليها نظرية التطور.
سنناقش في هذا الفصل هذه النقاط الثلاث الرئيسية:

العقبة الأولى التي لم تذلل: أصل الحياة

تقول نظرية التطور أن جميع الكائنات الحية قد تطورت عن خلية وحيدة ظهرت على سطح الأرض البدائية منذ 3.8 ملايين سنة. ولكن كيف يمكن لخلية وحيدة أن ينشأ عنها الملايين من الأنظمة والأنواع الحية؟ وإذا كان هذا التطور قد حدث فعلاً فلماذا لم تظهر علائمه في السجلات الإحاثية ، هذا سؤال لم تتمكن النظرية الإجابة عليه. إلا أن السؤال الأول الذي بقي يواجه هذه النظرية، التي لم تجد جوابا عليه حتى الآن، هو كيف نشأت "الخلية الأولى".

تفسر نظرية التطور، التي لا تعترف بالخلق ولا تقبل بوجود خالق، نشوء الخلية الأولى على أنها أتت عن طريق الصدفة التي تتضمنها قوانين الطبيعة. حسب هذه النظرية تكون المادة الحية قد نشأت من مادة غير حية نتيجة للعديد من المصادفات، ومن المؤكد أن هذا الزعم لا يتوافق مع أبسط قواعد علم الأحياء.

الحياة تنشأ من الحياة

في هذا الكتاب، لم يتطرق داروين إلى أصل الحياة. فقد كان الفهم البدائي لحقيقة الحياة في عصره يعتمد على الإفتراض بأن الكائنات الحية ذات بنيات بسيطة جداً. لقد لاقت نظرية النشوء التلقائي التي انتشرت في القرون الوسطى، والتي تقول أن المواد غير الحية تجمعت من تلقاء نفسها لتشكل كائن حي، رواجاً واسعاً في ذلك الزمن. من الاعتقادات التي نتجت عن هذه النتيجة هي أن الحشرات تنشأ عن بقايا الطعام، وأن الجرذان تأتي من القمح. هنا يجدر بنا أن نتعرض لتجربة مضحكة قام بها البعض،

حيث تم وضع بعض القمح على قطعة وسخة من القماش، وكان المنتظر أن يخرج جرذاً بعد برهة من الزمن.

ومن المنطلق ذاته كان يعتقد أن الديدان تخرج من اللحم؛ إلا أنه لم يلبث العلم أن أثبت أن الديدان لا تخرج من اللحم بشكل تلقائي، وإنما يحملها الذباب بشكل يرقانات لا ترى بالعين المجردة.

كان هذا الاعتقاد سائداً في الزمن الذي كتب فيه داروين كتاب "أصل الأنواع" ، فقد كان يعتقد بأن البكتريا جاءت إلى الوجود من مادة غير حية وكان هذا الاعتقاد مقبوا علمياً.

لم يطل الوقت حتى أعلن باستور نتائج دراساته الطويلة وأبحاثه الكثيرة التي تدحض أساس نظرية داروين. قال باستور في محاضرته التي أعلن فيها عن انتصاراته في السوربون عام 1864:

"لا يمكن أن تستفيق نظرية النشوء التلقائي من الضربة الصاعقة التي أصابتها بها هذه التجربة البسيطة." 1

قاوم المدافعون عن النظرية الداروينية اكتشافات باستور لوقت طويل. إلا أن ماجاء به باستور بالإضافة إلى ما كشف عنه التقدم العلمي من البنية المعقدة لخلية المادة الحية، أبقيا فكرة وجود الحياة على سطح الأرض عن طريق الصدفة في مأزق لم تستطع الخروج منه.

المحاولات العاجزة في القرن العشرين

إن أول من تبنى موضوع منشأ الحياة في القرن العشرين كان التطوري المشهور ألكسندر أوبارين. تقدم هذا العالم بالعديد من الآراء العلمية في الثلاثينيات من ذلك القرن، حاول من خلالها إثبات إمكانية تطور خلية الكائن الحي عن طريق الصدفة. إلا أن دراساته لم تنته إلا بالفشل، مما حدا بأوبرين تقديم الاعتراف التالي:

" للأسف، بقيت مشكلة منشأ الخلية الأولى أكثر النقاط غموضاً في دراسة تطور

الأنظمة الحية".[2]

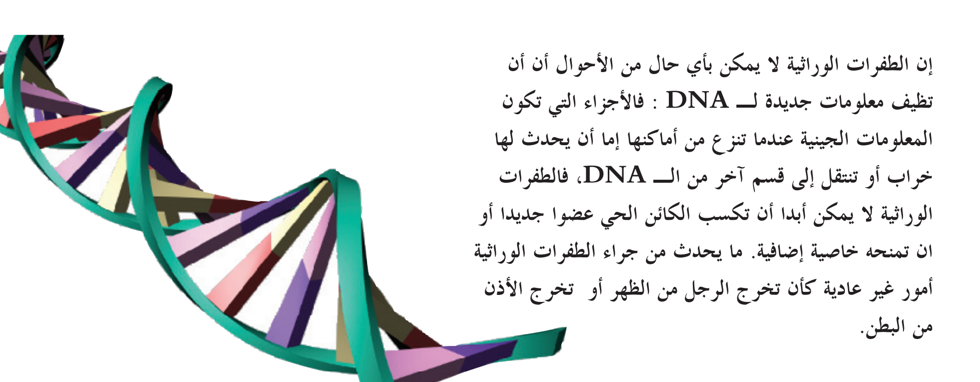
حمل التطوريون بعد أوبرين مسؤولية حل مشكلة منشأ الحياة. وكان أكثر هذه التجارب شهرة تلك التي قام بها الكيميائي الأمريكي ستانلي ميللر عام 1953. قام هذا العالم بدمج عدد من الغازات التي يفترض أنها كانت موجودة في المناخ البدائي للأرض، وأضاف إليها مقدار من الطاقة. من خلال هذه التجربة تمكن ميللر من تركيب عدد من الحموض الأمينية (الجزيئات العضوية) التي تتواجد في تركيب البروتينات.

إلا أنه لم تمض عدة سنوات حتى ثبت بطلان هذه النظرية، التي كانت تعتبر خطوة رائدة في تقدم نظرية التطور، فالمناخ الذي استخدم في هذه التجربة كان مختلفاً جداً عن الظروف الأرضية الحقيقية.[3]

وبعد فترة من الصمت اعترف ميللر أن المناخ الذي استخدمه في تجربته كان غير حقيقياً.[4]

لقد باءت جميع محاولات التطوريين في إثبات نظريتهم في القرن العشرين بالفشل. يعترف العالم الجيولوجي بادا من معهد سكريبس في سانت ياغو بهذه الحقيقة في مقالة نشرتها مجلة "الأرض" عام 1998:

"ها نحن اليوم نغادر القرن العشرين دون أن نتمكن من حل المشكلة التي بدأنا القرن معها وهي : كيف بدأت الحياة على الأرض؟"[5]



إن الطفرات الوراثية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن أن تظيف معلومات جديدة لــ DNA : فالأجزاء التي تكون المعلومات الجينية عندما تنزع من أماكنها إما أن يحدث لها خراب أو تنتقل إلى قسم آخر من الــ DNA، فالطفرات الوراثية لا يمكن أبدا أن تكسب الكائن الحي عضوا جديدا أو ان تمنحه خاصية إضافية. ما يحدث من جراء الطفرات الوراثية أمور غير عادية كأن تخرج الرجل من الظهر أو تخرج الأذن من البطن.

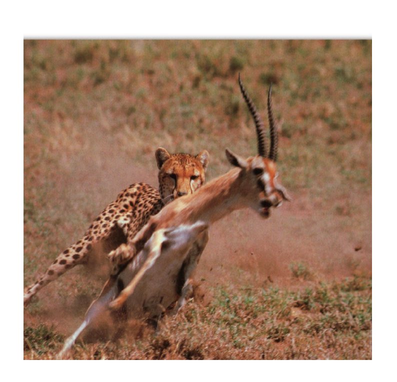
البنية المعقدة للحياة

السبب الرئيسي الذي أوقع نظرية التطور في مأزق "كيف بدأت الحياة" هو أن الكائنات الحية، حتى البسيطة منها، تنطوي على بنيات في غاية التعقيد. فالخلية الواحدة من الكائن الحي أكثر تعقيداً من أي منتج تقني صنعته يد البشر. فحتى يومنا هذا لا يمكن لأي مختبر كيميائي مهما بلغت درجة تطوره أن ينجح في تركيب خلية حية من خلال تجميع عدد من المواد العضوية مع بعضها.

إن الظروف المطلوب توفرها لتركيب خلية حية هي أكثر بكثير من أن تُعرض. فإمكانية تركيب أحد البروتينات التي تعتبر حجر الأساس في الخلية بشكل عشوائي هي 1 إلى 10^{950} وهذا بالنسبة لبروتين مكون من 500 حمض أميني؛ وفي الرياضيات يعتبر أي احتمال أصغر من 150 مستحيلاً!

إن جزيء الــ DNA الذي يتواجد في نواة الخلية والذي يخزن المعلومات الوراثية، هو في حد ذاته بنك معلومات معجز. فلو أن المعلومات المشفرة في جزيء DNA قد أفرغت كتابة فإنها ستشغل مكتبة عملاقة مكونة من 900 مجلداً من الموسوعات كلا منها يتألف من 500 صفحة.

وهنا تنشا مشكلة أخرى مثيرة: فجزيء الــ DNA لا يمكنه أن يتضاعف إلا



ليس هناك أي مكسب حصل لنظرية النشوء والإرتقاء من فكرة الانتقاء أو الاختيار الطبيعي. ذلك لأن هذه الآلية لم تعمل في يوم من الأيام على تطوير المعلومات الجينية أو إغنائها لدى أي نوع من الأنواع. إنه لا يمكن لأي نوع أن يتغير إلى نوع آخر مختلف عنه؛ بمعنى أن التطور لا يمكن أن يغير نجم البحر فيصبح سمكة، أو يغير الأسماك فتصبح ضفادع، أو يغير الضفادع فتصبح تماسيح أو يغير التماسيح فتصبح طيورا.

بمساعدة بعض البروتينات المختصة (الأنزيمات)، وهذه الأنزيمات لا يمكن أن تتشكل بدورها إلا من خلال المعلومات المشفرة في جزيء الـــ DNA. وبما أن كل منهما يعتمد على الآخر ، فمن الضروري أن يتواجدا في الوقت نفسه عند عملية التضاعف.وهذا يأتي بالنظرية القائلة أن الحياة قد نشأت من تلقاء نفسها إلى طريق مسدود. وقد اعترف البروفسور ليسلي أورجيل ، وهو تطوري مشهور من جامعة سانت ياغو كاليفورنيا بهذه الحقيقة من خلال موضوع نشر في مجلة العلوم الأمريكية عام 1994:

"من المستحيل أن تكون البروتينات والحموض الآمينية، وكلاهما جزيئات معقدة، قد نشأت من تلقاء نفسها في نفس الوقت وفي نفس المكان. أضف إلى عدم إمكانية تواجد أحدهما دون الآخر . وهكذا ومن النظرة الأولى يجد أحدنا أنه من المستحيل أن تكون الحياة قد نشأت من خلال عمليات كيميائية بحتة"6

لا شك أنه إذا كان من المستحيل أن تنشأ الحياة من أسباب طبيعية، فلا بد أنها قد "خلقت" بيد خالق. هذه الحقيقة تلغي نظرية التطور ، والتي تهدف بالدرجة الرئيسية إلى إنكار الخلق، من أساسها.

الأفكار الخيالية لنظرية التطور

النقطة الثانية التي تدحض نظرية داروين هي أن كلا المفهومين اللذين وضعتهما النظرية كـــ "تقنيات تطورية" ثبت أنها في الحقيقة لا تملك أي قوة تطورية.

لقد اعتمد داروين في خدعة التطور التي خرج بها على فكرة "الإصطفاء الطبيعي". وقد ضمن هذه الفكرة في كتابه: "أصل الأنواع ، عن طريق الاصطفاء الطبيعي..."

يقول قانون الاصطفاء الطبيعي أن الكائنات الحية التي تمتلك خصائص قوية فقط هي التي يمكن أن تبقى في معركة الحياة. على سبيل المثال، عندما تهاجم الحيوانات المتوحشة قطيعاً من الغزلان، فإن الغزلان الأقوى والتي يمكنها أن تركض بسرعة



إنّ علماء الأحياء الذين هم من أنصار نظرية التطور قد أخذوا يبحثون عن نموذج مفيد للطفرات الأحيائية حيث عرَّضوا الذباب للطفرات الأحيائية منذ بداية القرن، إلا أنه في نهاية تلك المساعي والمجهودات لم يتم الحصول إلا على ذباب مريض، وعليل، وغير تام. ويوجد في الأعلى وعلى اليسار صورة لذبابة فاكهة طبيعية، وفي الأسفل وعلى اليمين توجد ذبابة فاكهة أخرى تعرضت للطفرات الأحيائية وخرجت سيقانها من رأسها، أما في أعلى اليمين فتوجد ذبابة فاكهة قد خرجت أجنحتها بشكل مشوه وذلك بالطبع نتيجة لما تعرضت له من طفرات أحيائية.

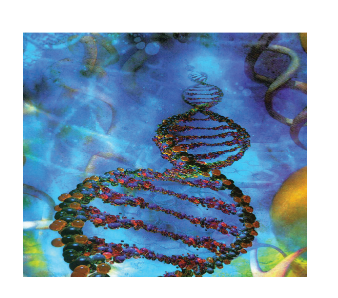
أكبر هي التي ستنجوا وتبقى على قيد الحياة. وهكذا يتشكل قطيع جديد من الأقوياء والسريعين فقط. ولكن، ولنفترض أننا سلمنا بهذا جدلاً، فهل يمكن لهؤلاء الأقوياء من قطيع الغزلان أن يتطوروا بأي شكل من الأشكال ليصبحوا خيولاً مثلاً؟ بالطبع لا.

لذلك نقول أن هذه الفكرة لا قوة تطورية لها. داروين نفسه كان قلقاً بشأن هذه الحقيقة التي وضعها في كتابه أصل الأنواع حيث قال:

"لا يمكن لقانون الاصطفاء الطبيعي أن يحقق شيئاً مالم تحدث تغييرات فردية إيجابية". 7

تأثير لامارك

ولكن كيف تحدث هذه "التغيرات الإيجابية"؟ حاول داروين الإجابة على هذا السؤال من خلال الفهم البدائي للعلوم في ذلك الوقت. فحسب نظرية لامارك الذي عاش قبل داروين، فإن الكائنات الحية تورث صفاتها التي اكتسبتها خلال حياتها إلى الأجيال التالية ، وهذه الصفات تتراكم من جيل إلى آخر لتشكل أنواع جديدة من الكائنات الحية. فحسب لامارك، الزرافات هي كائنات تطورت عن الظباء عندما كانت تجاهد من أجل الوصول إلى الثمار التي تحملها الأشجار العالية، فطالت رقبتها من جيل إلى آخر حتى استقرت على هذا الطول.



وباقتفاء أثره، أورد داروين مثالاً مماثلاً في كتابه فقال أن الدبب غطست في الماء أثناء بحثها عن الطعام فتحولت إلى حيتان على مر الأجيال".8

إلا أنه ما لبثت أن ظهرت قوانين الوراثة على يد العالم ماندل في القرن العشرين، مما أحبط أسطورة امتداد الصفات عبر الأجيال. وهكذا سقط الاصطفاء الطبيعي كدعامة من دعامات نظرية التطور.

الداروينية الجديدة والطفرات

ومن أجل الوصول إلى حل، قام الداروينيون بتطوير "نظرية تركيبية جديدة" أو ما يدعى بـــ "الداروينية الجديدة" في نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين. أضافت الداروينية الجديدة نظرية "الطفرات"وهي تشوهات جينية تطرأ على الكائن الحي وتحدث بفعل تأثيرات خارجية مثل التعرض إلى الإشعاعات وأخطاء في تضاعف الـــ DNA، بالإضافة إلى الطفرات الطبيعية.

و النموذج الذي يقف مدافعاً اليوم عن نظرية التطور هو الداروينية الجديدة.تقول هذه النظرية الجديدة ـــأن الملايين من الأحياء المتواجدة على سطح الأرض قد جاءت نتيجة لطفرات طرأت على الأعضاء المعقدة لهذه الكائنات مثل الآذان والعيون والرئات والأجنحة، أي إضطرابات وراثية. إلا أن الحقيقة العلمية تأتي في عكس الاتجاه المطلوب. فالطفرات لم تكن في يوم من الأيام إيجابية تؤدي إلى تقوية وتعزيز القدرة الحيوية الكائن الحي، وإنما إلى إنهاكها وإضعافها..

والسبب وراء هذا ببساطة هو أن جزيء DNA يحمل بنية معقدة جداً وأي تغيير عشوائي فيها سيؤدي ضرراً كبيراً. يشرح عالم الجينات رانغاناتان الموضوع كالتالي:

"أولاً، الطفرات الجينية نادرة الحدوث. ثانياً الطفرات في معظمها ضارة ومهلكة في بعض الأحيان لأنها تغيرات عشوائية ، وأي تغير غير منظم، علاوة على المنظم ، في أي كائن حي راقييتنحدر به نحو الأسوء ولا ترتقي به إلى الأفضل. فالهزة الأرضية التي قد تصيب أحد الأبنية على سبيل المثال، ستتسبب في تغيير في الإطار العام لها، وهذا بالطبع ما لن يكون تحسيناً في البناء."9

لهذا ليس غريباً غياب أي دليل على وجود طفرة كانت السبب في تغيير الشفرة الوراثية نحو الأفضل. على العكس فجميع الطفرات كانت ناكسة . أصبح واضحاً إذاً أن الطفرة التي اعتبرت من تقنيات التطور لا تجلب على الكائن الحي إلا المزيد من الضعف وتجعله عاجزاً. (من التأثرات الشائعة للطفرة في العصر الحديث مرض السرطان). وطبيعي أن لا تكون تقنية مدمرة من تقنيات "التطور"، كما لا يمكن لــ "الاصطفاء الطبيعي " أن ينجز شيئاً بنفسه. وهذا يعني أنه لا يوجد تقنيات تطور في الطبيعة. وبانتفاء وجود هذه التقنيات تنتفي عملية التطور.

السجلات الإحاثية:

لا دليل على وجود أشكال مرحلية

مزيف

في الحقيقة لا يوجد أي دليل في

سجل المستحاثات على أكثر الادعاءات وضوحاً في سيناريو نظرية التطور.

حسب نظرية التطور، فإن كل كائن حي قد نشأ عن كائن قبله، أي أن الكائنات السابقة قد تحولت إلى كائنات أخرى، وكل الأنواع نشأت بهذه الطريقة. وحسب النظرية، فإن هذه التحولات استغرقت ملايين السنين.

وإذا كان هذا الافتراض حقيقي ، فمن الضروري وجود عدد كبير من الأنواع المرحلية التي عاشت في فترة التحول الطويلة. على سبيل المثال لابد من وجود كائن نصفه سمكة ونصفه سلحفاة يحمل صفات السلحفاة بالإضافة إلى صفات الأسماك التي يحملها أصلاً. أو كائنات نصفها طير والنصف الآخر زواحف، أي تحمل بعض صفات الطيور بالإضافة إلى صفات الزواحف التي تحملها أصلاً. وبما أنها في الطور المرحلي، فهي كائنات عاجزة غير مؤهلة، ومعاقة؛ ويطلق التطوريون على هذه الأشكال الخيالية إسم "الأشكال التحولية"

لو كان هناك حيوانات كتلك حقاً، فيجب أن يكون هناك الملايين بل البلايين منها وبشكل متنوع. والأهم من ذلك يجب أن تحمل سجلات المستحاثات بقايا هذه الأحياء الغريبة. يقول داروين في كتابه "أصل الأنواع":

"إذا كانت نظريتي صحيحة، فلابد من وجود عدداً كبيراً من الأنواع المختلفة التي تصنف ضمن فئة واحدة، وهذا الوجود ستثبته السجلات الإحاثية". 10

آمال داروين تتبدد

بالرغم من جميع محاولات التطوريين الجادة في إيجاد مستحاثات تدعم تصوراتهم في وجود مخلوقات تحولية في منتصف القرن العشرين في جميع أنحاء العالم، إلا أنهم لم يجدوا أ ياً منها . لقد أثبتت جميع المستحاث التي اكتشفت أثناء الحفريات الجيولوجية عكس ما قالت به النظرية الداروينية تماماً: لقد نشأت الحياة فجأة وبتشكل

تام لا وجود لأي شكل تحولي.

أقر أحد علماء التطور، العالم الإنجليزي ديريك آغر Derek Ager بهذه الحقيقة عندما قال:

النقطة هي أننا عندما قمنا بتقصي السجل الإحاثي بالتفصيل سواء على مستوى الأنواع أو الترتيب الزمني المرة تلو المرة، لم نجد تطور تدريجي أو مرحلة انتقالية، وإنما ظهور مفاجئ لمجموعة من الكائنات على حساب أخرى.11

هذا يعني أن السجل الإحاثي يبرهن أن جميع الكائنات الحية قد ظهرت على الأرض بشكل مفاجئ بأشكالها التامة، ودون أي طور تحولي، وهذا عكس الإدعاء الدارويني تماماً وإثبات قوي على حقيقة الخلق. فالتفسير الوحيد لنشوء الكائنات الحية بشكل مفاجئ على سطح الأرض بشكلها الكامل ودون تطور عن أجداد سابقين، إنما يعني أن هذه الأنواع قد خلقت خلقاً. ويقر هذه الحقيقة عالم الأحياء التطوري دوغلائس فيوتويما:

"الخلق والتطور، وبينهما التفسيرات المحتملة عن أصل الكائنات الحية. فإما أن تكون الأنواع قد ظهرت على سطح الأرض بتكوينها الكامل، أو لا تكون. إذا لم يكن الأمر كذلك فهذا يعني أنها قد تطورت عن أنواع وجدت مسبقاً من خلال بعض عمليات التحول. أما إذا كانت قد ظهرت بشكلها الكامل ، فلابد أنها قد خلقت خلقاً.12

والمستحاثات تثبت أن الكائنات الحية قد نشأت بشكلها المكتمل على سطح الأرض، وهذا يعني أن "أصل الأنواع" ليس كما يدعي داروين، إنه خلق وليس تطور.

قصة تطور الإنسان

الموضوع الذي يحاول مؤيدوا نظرية التطور الكلام به دائماً هو موضوع أصل

الإنسان. يدعي الداروينيون أن الإنسان الحالي قد تطور عن نوع من أشباه القردة. وخلال هذه العملية التطورية المزعومة، التي يفترض أنها استغرقت من 4-5 ملايين عاماً، ظهرت "أشكال تحولية" تفصل بين الإنسان الحديث وأجداده، كما يزعمون. وحسب هذه الصورة الخيالية البحتة، صنفت هذه الأشكال في أربعة فئات:

1-أوسترالوبيثيكوس

2-هومو هابيليس.

3-هومو أريكتوس

4-هومو سابينس

يطلق التطوريون على الجد الأول للإنسان " أوسترالوبيثيكوس" ويعني "قرد جنوب إفريقيا".والحقيقة هو أن هذا المخلوق ليس إلا نوعا من القرود القديمة المنقرضة. أثبتت الأبحاث الواسعة التي أجراها عالما التشريح ، اللورد سولي زوكرمان والبروفسور تشارلز أوكسنارد، من إنكلترا والولايات المتحدة، على مستحاثات أوسترالوبيثيكوس أن هذه المستحاثات تعود إلى أنواع عادية من القردة التي انقرضت والتي لا تحمل أي شبه مع الإنسان.[13]

والفئة الثانية التي يصنفها التطوريون هي "هومو" وتعني "الإنسان" وحسب نظرية التطور، فإن سلالة الهومو أكثر تطوراً من سلالة أوسترالوبيثيكوس. وهنا اخترع التطوريون خطة مثيرة بتركيبهم لهدة مستحاثات من هذه المخلوقات ووضعها بترتيب معين. إلا أن تلك الخطة خيالية لأنه لم يثبت وجود أي علاقة تطورية بين هذه الفئات المختلفة. يقول أحد أهم المعلقين على نظرية التطور إيرنست ماير في كتابه "من المناظرات الطويلة:

" تعتبر الأحجية التاريخية التي تتكلم عن أصل الحياة أو أصل الهومو سابينس أحجية صعبة حتى أنها تتعارض مع الاكتشافات الأخيرة."[14]

ومن خلال السلسلة التي وضعها التطوريون فإن الفئات الأربع: أوسترالوبيثيكوس،

هومو هابيليس، هومو أريكتوس، هومو سابينيس ناشئة عن بعضها البعض. إلا أن الاكتشافات الأخيرة التي ظهرت على يد علماء المستحاثات البشرية قد أثبتت أن هذه الفئات الأربعأوسترالوبيثيكوس ، هومو هابيليس، هومو أريكتوس، هومو سابينيس قد عاشت في بقاع مختلفة من العالم وفي زمن واحد.15

علاوة على هذا، فإن الأجزاء البشرية التي صنفت في فئة "هومو أريكتوس" لم تنقرض حتى وقت قريب جداً، أما النياندرتاليين والهوموسابينيس فقد تعايشوا في زمن واحد وفي منطقة واحدة.16

هذا الاكتشاف يدحض الادعاء بأن أحد منهم يمكن أن يكون جداً للآخر. يفسر عالم الأحياء القديمة ستيفن جاي غولد Stephen Jay Gould من جامعة هارفارد النهاية المسدودة التي وصلت إليها نظرية التطور، بالرغم من أنه عالم تطوري:

ماذا سيكون مصير فكرتنا إذا كان هناك تزامن معيشي لثلاث من فئات الهومو (الإفريقي والأوسترالوبيثيكوس القوي والهومو هابيليس) وثبت أن أحداً منهم لم ينشأ عن الآخر؟ أضف إلى أن أحدا من هؤلاء لم يثبت عليه أي تحول تطوري خلال فترة حياته على سطح الأرض.17

نقول باختصار، أن سيناريو التطور البشري الذي ينص على وجود مخلوق نصفه إنسان ونصفه قرد والذي قام على استخدام العديد من الصور الخيالية التي ظهرت في الكتب الدعائية لنظرية التطور، ليست إلا قصة لا أساس لها من الصحة العلمية.

وبالرغم من كون العالم سولي زوكرمان، الأكثر شهرة في المملكة المتحدة، عالماً تطورياً، إلا أنه اعترف في نهاية أبحاثه، التي استغرقت عدة سنوات والتي تناولت بشكل خاص مستحاثات أوسترالوبيثيكوس لمدة 15 عاماً، أنه لا يوجد شجرة بشرية تتفرع عن مخلوقات شبيهة بالقرود.

صنف زوكرمان العلوم ضمن طيف أسماه "طيف العلوم" يتدرج من العلوم التي

يعتبرها علمية لينتهي في العلوم التي يعتبرها غير علمية. وحسب طيف زوكرمان، فإن أكثر العلوم "علمية" — أي التي تقوم على بيانات ومعلومات ملموسة– هي الفيزياء والكيمياء، تليهما العلوم البيولوجية وفي الدرجة الأخيرة العلوم الاجتماعية. وفي نهاية الطيف تأتي العلوم "غير العلمية" والتي يحتل مكانها "الإدراك الحسي المفرط" — وهي مفاهيم الحاسة السادسة والتيليباثي (التخاطر عن بعد) — ويليها "التطور البشري". ويشرح لنا زوكر عمله هذا:

> نحن هنا إذاً نتحول من الحقيقة المسجلة موضوعياً إلى تلك المجالات التي يشغلها علم الأحياء الافتراضي، مثل الإدراك الحسي المفرط، أو التفسير التاريخي للمستحاثات الإنسانية، والتي يبدو فيها كل شيء جائز بالنسبة للتطوري، حيث يكون التطوري مستعداً لتصديق العديد من الأمور المتناقضة في وقت واحد.[18]

لقد انحدرت قصة التطور البشري لتصل إلى مستوى التفسيرات المتحيزة لبعض المستحاثات التي استخرجها بعض الأشخاص الذين تعلقوا بهذه النظرية بشكل أعمى.

المعادلة الداروينية

إلى جانب كل ما تناولناه إلى الآن من أدلة تقنية ، نود أن نوجز ـــ إن شئتم ـــ وبمثال واضح بحيث يمكن حتى للأطفال أن يفهموه ، كيف أن التطوريين أولو عقيدة خرفاء فاسدة .

تزعم نظرية التطور أن الحياة تشكلت محض صدفة؛ وعليه وطبقاً لهذا الزعم فإن الذرات الجامدة وغير الواعية اجتمعت وشكلت أولاً خلية، ثم جاءت الذرات نفسها بطريقة أو بأخرى بالكائنات الحية والبشر. ولنفكر الآن: إننا حينما نجمع عناصر مثل الكربون والفسفور والأزوت والبوتاسيوم وهي المفردات الأساسية في بنية الكيان

الحي، فإنه تتشكل كومة. ومهما مرت كومة الذرات هذه بأي من العمليات، فإنها لا يمكن أن تشكل كائنا حيا واحدًا. ولنجر تجربة في هذا الصدد إذا ما شئتم ، ولنتناول بالبحث والاستقصاء، باسم التطوريين وتحت عنوان "المعادلة الداروينية"، الزعم الذي ينافحون عنه في الأصل، إلا أنهم لا يستطيعون أن يجهروا به:

فليضع التطوريون كميات وفيرة من عناصر مثل الفسفور والأزوت والكربون والأوكسجين والحديد والماغنسيوم وهي العناصر التي تتشكل منها بنية الكائن الحي، داخل أعداد هائلة من البراميل العظيمة. وليضيفوا حتى إلى هذه البراميل ما يرون أنه من الضروري وجوده داخل هذا المزيج من مواد لا توجد حتى في الظروف الطبيعية. وليفعموا هذا المزيج بقدر ما يشاؤون من الأحماض الأمينية، والبروتين (احتمال تشكل الوحدة الواحدة منه تصادفياً بنسبة 10 قوة 950). وليمدّوا هذا المزيج بالحرارة والرطوبة بالنسبة التي يرونها مناسبة، وليخفقوه ما شاؤوا من الأجهزة المتطورة، وليقيّضوا على رأس هذه البراميل صفوة علماء العالم، ولينتظر هؤلاء الخبراء في مكانهم هذا وبشكل مستمر مليارات، بل تريليونات السنين بالتناوب من الأب إلى الابن، ومن جيل إلى جيل، ولتكن لهم مطلق الحرية في أن يستخدموا كافة ما يعتقدون في ضرورة وجوده من الظروف من أجل تشكل الكائن الحي. إنّهم مهما فعلوا، ليس بمقدورهم بالطبع أن يُخرجوا كائنا حيّا من تلك البراميل. ولا يتأتى لهم أن يأتوا بواحدة من الزّرافات أو الأسود أو النحل أو عصافير الكناريا أو البلابل أو الببغاوات أو الخيل أو حيتان يونس أو الورود أو زهور الأوركيد أو الزنابق أو زهور القرنفل أو الموز أو البرتقال أو التمر أو الطماطم أو الشمام أو البطيخ أو التين أو الزيتون أو العنب أو الخوخ أو الطواويس أو طيور الدُّراج أو الفراشات مختلفة الألوان وملايين من الأنواع الحية من مثل هؤلاء. بل ليس بوسعهم أن يأتوا ولو بخلية من هذه الكائنات الحية التي أحصينا عدداً منها، لا بواحدة منها كاملة الخلق.

جملة ما نبغي قوله هو أن الذرات غير الواعية ليس بوسعها أن تجتمع فتشكل خلية

حية، ولا تستطيع أن تتخذ قرارًا جديدًا من بعد فتقسم الخلية نصفين، ثم تتخذ قرارات أخرى تباعًا فتأتي بكيان العلماء الذين اخترعوا المجهر الإليكتروني، ممن يراقبون بنية الخلية ذاتها فيما بعد تحت المجهر. إنّ الخلية تدب فيها الحياة فقط بالخلق المعجز لله عز وجل. أما نظرية التطور التي تزعم عكس هذا، فهي سفسطة تتنافى تماما مع العقل والمنطق. وإن إعمال الفكر ولو قليلا في المزاعم التي طرحها التطوريون، ليظهر بجلاء هذه الحقيقة مثلما في النموذج الوارد أعلاه.

التقنية الموجودة في العين والأذن

أما الموضوع الآخر الذي لم تستطع نظرية التطور أن تأتي له بتفسير جازم، فهو جودة الإدراك الفائقة الموجودة في العين والأذن.

وقبل الولوج إلى الموضوع المتعلق بالعين، نود أن نجيب بإيجاز عن سؤال هو: كيف تبصر العين ؟

إن الأشعة المنبعثة من جسم ما، تسقط بشكل عكسي على شبكية العين، وتقوم الخلايا الموجودة هنالك بتحويل هذه الأشعة إلى إشارات كهربية، تصل إلى نقطة تسمى مركز الإبصار موجودة بالجزء الخلفي للمخ. وهذه الإشارات الكهربية، بعد مجموعة من العمليات يتم التقاطها كصورة في هذا المركز الكائن في المخ. وبعد هذه المعلومة فلنفكر:

إن المخ محجوب عن الضوء، بمعنى أن داخل المخ ظلامًا دامسًا، ولا يتأتى للضوء أن ينفذ إلى حيث يوجد المخ. والموضع الذي يسمى مركز الإبصار موضع حالك الظلمة ليس الضوء ببالغه أصلا، ولعله مظلم بدرجة لم نصادفها قط. إلا أنكم في هذه الظلمة الحالكة تشاهدون عالما مضيئا متوهجا.

فضلا عن كونه منظرًا على درجة من النقاء والجودة تعجز حتى تقنية القرن الحادي والعشرين ــــ رغم كل الإمكانيات ــــ أن تأتي بمثلها. انظروا مثلا إلى الكتاب الذي بين أيديكم الآن، وانظروا إلى أيديكم التي تمسك الكتاب، ثم ارفعوا رأسكم وانظروا

حولكم. أرأيتم منظرًا بهذا النقاء والجودة في أي موضع آخر؟ إن شاشة أكثر أجهزة التلفاز تطورًا والتي تنتجها شركة أجهزة التلفاز الأولى على مستوى العالم، لا يمكن أن تمنحكم صورة بهذا القدر من النقاء. ومنذ مائة عام وآلاف المهندسين يسعون للوصول إلى هذا النقاء، ومن ثم تُشيَّد المصانع والمؤسسات العملاقة، وتُجرى الأبحاث، ويتم تطوير الخطط والتصميمات. ولتنظروا ثانية إلى شاشة التلفاز، وفي اللحظة ذاتها إلى الكتاب الذي بين أيديكم، فسوف ترون أن هناك فرقاً شاسعاً في النقاء والجودة. فضلا أن شاشة التلفاز تبدي لكم صورة ثنائية الأبعاد، في حين أنكم تتابعون مناظر ثلاثية الأبعاد ذات عمق.

ومنذ سنوات طوال يسعى عشرات الآلاف من المهندسين لتصنيع شاشات جهاز تلفاز تعطي صورة ثلاثية الأبعاد، والوصول إلى جودة رؤية العين. نعم لقد أمكنهم تصميم نظام تلفاز ثلاثي الأبعاد، غير أنه ليس في الإمكان رؤيته ثلاثي الأبعاد دون ارتداء النظارة. ومع أن هذه الأبعاد الثلاثة اصطناعية. فالجهة الخلفية تظل عكرة، أما الجهة الأمامية فتبدو وكأنها صورة من ورق. ولا يتشكل أبدا منظر في جودة ونقاء المنظر الذي تراه العين. ويحدث بالطبع أن تضيع الصورة في الكاميرا والتلفاز.

وها هم التطوريون يزعمون أن آلية الإبصار في العين والتي تظهر هذا المنظر الذي يتسم بالجودة والنقاء، إنما تشكلت بمحض المصادفة . والآن إذا ما قال أحد لكم إن التلفاز الموجود في حجرتكم، إنما قد تشكل نتيجة مصادفات، وأن الذرات تجمعت وجاءت بالجهاز الذي يشكل هذه الصورة، ماذا تعتقدون فيه؟! كيف لذرات غير واعية أن تصنع ما لم يتأت لآلاف الأشخاص مجتمعين أن يصنعوه ؟!

إنّ الآلة التي تشكل منظرًا هو أكثر بدائية مما تراه العين، لو أنها لا تتشكل مصادفة، فإنه من الواضح للغاية أن العين والمنظر الذي تراه بدورهما لن يتشكلا محض مصادفة، والحال كذلك بالنسبة للأذن. فالأذن الخارجية تجمع الأصوات المحيطة بواسطة صوان الأذن، وتقوم بتوصيلها إلى الأذن الوسطى، لتقوم هي الأخرى بتقوية الذبذبات الصوتية ونقلها إلى الأذن الداخلية، لتقوم بدورها بتحويل هذه الذبذبات إلى إشارات

كهربية، وإرسالها إلى المخ. وعملية السمع أيضا كما هو الشأن في عملية الإبصار تتم في مركز السمع الموجود في المخ.

والوضع الذي في العين يسري كذلك على الأذن. بمعنى أن المخ محجوب كذلك عن الصوت مثلما هو محجوب عن الضوء، فالصوت لا ينفذ، وعليه فإنه مهما بلغت شدة الضجيج خارج المخ، فإن داخله ساكن تمام السكون. ورغم هذا فإن أنقى الأصوات تُلتقط في المخ. ولو أنكم تسمعون سيمفونيات أوركسترا في مخكم الذي لا ينفِذ إليه الصوت، فإنكم تشعرون بكل صخب أحد الأوساط المزدحمة. وإذا ما قيس مستوى الصوت الذي بداخل المخ باستخدام جهاز حساس في تلك اللحظة، فسيتضح أنه يُطبق عليه السكون التام.

وعلى نحو ما استخدمت التقنية أملا في الحصول على صورة نقية، فإن المساعي نفسها تتواصل منذ عشرات السنين بالنسبة كذلك للصوت. وتُعد أجهزة تسجيل الصوت وأشرطة الكاسيت وكثير من الأجهزة الإليكترونية، والأنظمة الموسيقية التي تلتقط الصوت، بعض ثمار هذه المساعي. ولكن على الرغم من كل التقنيات، وآلاف المهندسين والخبراء العاملين بحقلها، لم يتأت الوصول إلى صوت بنقاء وجودة الصوت الذي تلتقطه الأذن. وتأملوا أجود أشرطة الكاسيت التي تنتجها كبرى شركات الأنظمة الموسيقية، فحينما يسجل الصوت، حتما يضيع شطر منه، أو يحدث تشوش بالطبع ولو قليلا، أو أنه حينما تقومون بتشغيل شريط الكاسيت فإنكم لا بد أن تسمعوا له صريرًا قبل أن تبدأ الموسيقى. في حين أن الأصوات التي من نتاج التقنية الموجودة بالجسم الإنساني تتسم بأقصى درجات النقاء، ولا تشوبها شائبة. ولا تلتقط أذن إنسان أبدًا الصوت بشكل به صرير أو تشويش. وأيا ما كانت طبيعة الصوت فإنها تلتقطه بشكل كامل ونقي. وهذا الوضع لا يزال على ذات الكيفية منذ أن خُلق الإنسان وإلى يومنا هذا. وإلى الآن ليس ثمة جهاز بصري أو صوتي من صنع بني الإنسان يلتقط الصورة والصوت بشكل حساس وناجح مثل العين والأذن.

وفيما عدا هذا كله، فإنه ثمة حقيقة عظيمة للغاية في عملية الإبصار والسمع.

لمن تعود حاسة الإبصار والسمع داخل المخ ؟

من ذا الذي بداخل المخ يشاهد عالما مضيئا ملونا، ويسمع السيمفونيات وزقزقة العصافير، ويتنسم عبير الورود؟ إن التنبيهات الآتية من عيني الإنسان وأذنيه وأنفه تمضي إلى المخ في صورة إشارة كهربية. وإنكم لتطالعون تفصيلات كثيرة في كتب علم الأحياء والطبيعة والكيمياء الحيوية، بيد أنكم لا يمكن أن تصادفوا في أي موضع قط أهم حقيقة ينطوي عليها هذا الموضوع ألا وهي: من ذا الذي بالمخ يتلقى هذه الأشارات الكهربية ويدركها على أنها صورة وصوت ورائحة وإحساس. إن ثمة حاسة توجد بداخل المخ تلتقط هذا كله دون حاجة إلى عين أو أذن أو أنف، لمن تعود هذه الحاسة. بالطبع لا تعود على ما يشكل المخ من أعصاب وطبقات دهنية وخلايا عصبية. وهكذا ولهذا السبب ليس بمقدور الماديين الداروينيين ممن يظنون أن كل شيء ليس سوى مادة، أن يجيبوا على هذه التساؤلات، لأن هذه الحاسة إنما هي الروح التي خلقها المولى عز وجل. فهي لا تحتاج إلى عين حتى ترى الصورة، ولا أذن حتى تسمع الصوت. وعلاوة على هذا كله، فهي ليست بحاجة إلى مخ كيما تفكر. إن كل امرئ يطالع هذه الحقيقة العلمية الجلية، عليه أن يفكر في الله عز وجل الذي جمع بمكان حالك الظلمة داخل المخ يقدَّر بعدة سنتيمترات مكعّبة، الكائنات كافة بصورة ثلاثية الأبعاد ذات ألوان وظلال وضياء، ويخشاه ويلوذ به.

عقيدة مادية

إن ما تناولناه إلى الآن بالبحث والتدقيق ليظهر أن نظرية التطور ما هي إلا زعم

يتعارض بوضوح مع الاكتشافات العلمية، ويجافي زعم النظرية ــ فيما يتعلق بأصل الحياة ــ المنطق العلمي. فليس لأية آلية تطور قط طرحتها النظرية أي تأثير تطوري. وتكشف الحفريات أن الكائنات الحية لم تمر بمراحل بينية تلك التي تستوجبها النظرية. وفي هذه الحالة يتعين تنحية نظرية التطور جانبا باعتبارها فكرة مجافية للعلم. لا سيما وأن كثيرًا من الأفكار التي ظهرت على مدار التاريخ، مثل فكرة أن الأرض هي مركز الكون، قد حُذفت من أجندة العلم. في حين أن نظرية التطور يُتشبث بها وبإصرار في هذه الأجندة، حتى إنه من الناس من يسعى لإظهار أي انتقاد موجه إلى النظرية وكأنه هجوم على العلم ! لِمَ هذا إذن؟!

إن السبب في هذا الوضع إنما هو تكون عقيدة جازمة لنظرية التطور لا يمكن النكوص عنها بالنسبة إلى بعض الأوساط. وتخلص هذه الأوساط إخلاصاً أعمى للفلسفة المادية، وتتبنى الداروينية كذلك لأنها التفسير المادي الوحيد للطبيعة الذي يمكن الإتيان به.

وأحيانا يعترفون صراحة بهذا، ويعترف ريتشارد لونتين (Richard Lewontin) ــ عالم الوراثة الشهير بجامعة هارفرد وفي الوقت ذاته تطوري بارز، ــ بأنه "مادي في المقام الأول، ثم عالم في المقام الذي يليه"، إذ يقول:

> "إن لنا إيمانا بالمادية، وهو إيمان استباقي (اعتُنق سلفا، وافترضت صحته). والشيء الذي يدفعنا إلى الإتيان بتفسير مادي للعالم، ليس هو أصول العلم وقواعده، بل على العكس من ذلك فإننا ــ بسبب من إخلاصنا سلفا للمادية ــ نختلق أصول ومفاهيم بحثية تأتي بتفسير مادي للعالم. ونظرا إلى كون المادية صحيحة صحة مطلقة، فإننا لا يمكن أن نسمح بدخول تفسير إلهي إلى الساحة".19

وتُعد هذه الكلمات اعترافات صريحة بأن الداروينية مولود يحيا في سبيل الإخلاص للفلسفة المادية. وهذا المولود يفترض أنه ما من وجود قط سوى المادة. ولهذا السبب يعتقدون أن المادة الجامدة عديمة الوعي إنما خلقت الحياة. ويذهبون إلى أن ملايين الأنواع الحية المختلفة مثل الطيور والأسماك والزرافات والنمور والحشرات والأشجار

والأزهار وحيتان البال والبشر إنما تشكلت من داخل المادة الجامدة وبالتفاعلات الحادثة داخل المادة ذاتها؛ أي بالمطر الساقط، والبرق الخاطف. أما في حقيقة الأمر فإن هذا يتنافى مع العقل والمنطق على السواء. بيد أن الداروניين يستمرئون المنافحة عن هذا الرأي بُغية "عدم دخول تفسير إلهي إلى الساحة" على حد تعبيرهم.

أما من لا ينظرون إلى أصل الكائنات الحية وفي أذهانهم حكم مادي مسبق، فسوف يدركون هذه الحقيقة الجلية. والكائنات الحية كافة إنما هي من صنع خالق ذي قوة وعلم وعقل معجز. إنه الله الذي خلق الكون كله من العدم، ونظّمه بشكل لا تشوبه شائبة أو قصور، وخلق الكائنات الحية كافة وصوّرها.

إن نظرية التطور هي أشد السحر تأثيراً في تاريخ العالم

يتعين هنا أن نوضح أن أيما إنسان يُعمِل عقله ومنطقه دون أحكام مسبقة ودون الوقوع تحت تأثير أي أيديولوجية، سيدرك بسهولة ويسر أن نظرية التطور التي تذكرنا بخرافات المجتمعات التي عاشت بمنأى عن العلم والحضارة، ليست سوى زعم يستحيل تصديقه.

وعلى النحو المتقدم تبيانه، فإن من يؤمنون بنظرية التطور يعتقدون أن الأساتذة الذين يفكرون ويعقلون ويخترعون، والطلاب الجامعيين والعلماء مثل إينستين هوبل (***Einstein Hubble***)، والفنانين مثل فرانك سيناترا (***Frank Sinatra***) وتشارلتون هيستون (***Charlton Heston***)، يضاف إليهم كائنات مثل الغزلان وأشجار الليمون وزهور القرنفل، سوف يخرجون مع مرور الزمان من مزيج من كثير من الذرات والجزئيات والمواد غير الحية التي تملأ برميلا عظيما. لا سيما وأن من يؤمنون بهذا الخَرَف هم علماء وأساتذة وأناس على قدر من الثقافة والتعليم. ولهذا السبب فإن استخدام تعبير "أشد السحر تأثيرًا في تاريخ العالم" بالنسبة إلى نظرية التطور سيكون استخدامًا في

محله. إذ إنه ليس في تاريخ العالم اعتقاد أو زعم آخر سلب عقول البشر بمثل هذه الدرجة وحرمهم من فرصة التفكير بالعقل والمنطق، وكأنه أسدل ستارًا أمام أعينهم، حال دون أن يروا الحقيقة التي كانت واضحة بجلاء. وإنّ هذا لغفلة وعدم بصيرة لا يستسيغها عقل مثلها كمثل عبادة بعض القبائل الإفريقية للطوطم وعبادة أهل سبأ للشمس وعبادة قوم إبراهيم عليه السلام للأوثان، التي كانوا يصنعونها بأيديهم، وعبادة قوم موسى عليه السلام للعجل الذي صنعوه من ذهب. وهذا الوضع في حقيقته إنما هو حماقة أشار إليها الله تعالى في القرآن الكريم. وينبئنا المولى عز وجل في كثير من آياته بأن من الناس من سيستغلق عليه الفهم ويتردون إلى حال يعجزون فيه عن رؤية الحقائق. ومن بين هذه الآيات قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ﴾ [البقرة: 6–7]

وقوله أيضا :

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: 179]

أما في سورة الحِجْر فيخبرنا الله عز وجل بأن أولئك الناس قد سُحروا بحيث أنهم لن يؤمنوا حتى ولو رأوا المعجزات، إذ يقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: 14–15]

وإن امتداد هذا السحر بشكل مؤثر على قطاعات عريضة من الناس بهذا القدر،

وابتعاد الناس عن الحقائق بهذه الدرجة، وبقاء هذا السحر منذ 150 عاما، لهو وضع مثير للحيرة والدهشة بدرجة لا يمكن شرحها بكلمات، لأنه من الممكن أن يستسيغ العقل اعتقاد شخص أو عدة أشخاص لسيناريوهات مستحيلة ومزاعم حافلة بالخَرَف والهراء والأمور غير المنطقية، إلا أن اعتقاد الكثيرين من البشر في كافة أنحاءِ العالم بأن الذرات اللاوعية والجامدة قد اجتمعت بقرار فجائي، فأتت بالكون الذي نراه يعمل بنظام لا تشوبه شائبة، ويكشف عن تنظيم غير عادي ونظام متقن غاية الاتقان، وبكوكب الأرض الذي يختص بكافة السمات المناسبة للحياة، وبكائنات حية مزودة بأنظمة معقدة تفوق الحصر، ليس له من تفسير سوى أنه سحر.

كما أن الله عز وجل ينبئنا من خلال تلك الحادثة التي وقعت بين موسى عليه السلام وفرعون، بأن بعض الأشخاص ممن ينافحون عن الفلسفة الإلحادية، يؤثّرون على الناس بما يصنعونه من السحر. فحينما قص موسى عليه السلام نبأ الدين الحق على فرعون، طلب فرعون إلى موسى أن يلتقي بسحرته في موضع يحتشد فيه الناس. وحينما التقى موسى السحرة أمرهم أن يبادروا هم باستعراض مهاراتهم. والآية التي تسرد هذه الحادثة تقول:

﴿ قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف:116]

. وعلى نحو ما تبدى تمكن سحرة فرعون بما صنعوه من خدع أن يسحروا الناس جميعا باستثناء موسى والذين آمنوا به. إلا أن البرهان الذي ألقاه موسى في مواجهة ما ألقاه هؤلاء على حد التعبير الوارد بالقرآن الكريم "تَلَقَّفَ مَا يَأْفِكُونَ"، أي أنّه أبطل تأثيره، يقول تعالى:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ﴾

[الأعراف: 117–119]

وعلى نحو ما ورد في الآيات، و مع إدراك أن ما فعله هؤلاء الأشخاص الذين سحروا الناس من قبل وأثروا عليهم إنما هو إفك، باؤوا بالذل والضعَّة. وأولئك الذين يؤمنون بمزاعم خرقاء إلى أقصى درجة تحت غلاف من العلم وبتأثير السحر في عصرنا الراهن، وينذرون حياتهم للدفاع عنها، فسوف يسقط شأنهم ويُذلوا ما لم يتخلوا عن هذه المزاعم، وذلك حينما تظهر الحقيقة بجلاء بكامل معانيها، و"يبطل تأثير السحر".

ويشرح مالكوم موجريدج (Malcolm Muggeridge) الذي ظل ينافح عن نظرية التطور حتى ناهز الستين من عمره، وكان فيلسوفاً ملحداً، ولكنه أدرك الحقائق من بعد الوضع الذي ستتردى إليه نظرية التطور في المستقبل القريب قائلا:

> "إنني أنا نفسي صرت مقتنعا بأن نظرية التطور ستكون إحدى مواد المزاح الموجودة بكتب تاريخ المستقبل لا سيما في المجالات التي طُبقت فيها. وسيتلقى جيل المستقبل بالدهشة والحيرة اعتناق فرضية متهرئة يكتنفها الغموض بسذاجة لا يصدقها عقل". 20

وهذا المستقبل ليس ببعيد، بل على العكس من ذلك، فإن البشر في المستقبل القريب للغاية، سيدركون أن المصادفات ليست إلهاً وسوف يتم الاعتراف بأن نظرية التطور إنما هي أكبر خدعة وأشد أنواع السحر في تاريخ العالم. وسرعان ما بدأ هذا السحر الشديد ينحسر عن الناس في شتى أنحاء الأرض، وبات الكثيرون ممن وقفوا على سر خدعة التطور، يتساءلون بدهشة وحيرة كيف انطلت هذه الخدعة عليهم.


﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا
إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾
[البقرة: ٣٢]



1. Sidney Fox, Klaus Dose, Molecular Evolution and The Origin of Life, New York: Marcel Dekker, 1977. p. 2
2. Alexander I. Oparin, Origin of Life, (1936) New York, Dover Publications, 1953 (Reprint), p. 196
3. "New Evidence on Evolution of Early Atmosphere and Life", Bulletin of the American Meteorological Society, vol 63, November 1982, p. 1328.1330.
4. Stanley Miller, Molecular Evolution of Life: Current Status of the Prebiotic Synthesis of Small Molecules, 1986, p. 7
5. Jeffrey Bada, Earth, February 1998, v. 40
6. Leslie E. Orgel, "The Origin of Life on Earth", Scientific American, vol 271, October 1994, p. 78
7.Charles Darwin, : A Facsimile of the First Edition, Harvard University Press, 1964, p. 189
8. Charles Darwin,, p. 184.
9. B. G. Ranganathan, Origins?, Pennsylvania: The Banner Of Truth Trust, 1988.
10. Charles Darwin, The Origin of Species: A Facsimile of the First Edition, Harvard University Press, 1964, 179.
11. Derek A. Ager, "The Nature of the Fossil Record", Proceedings of the British Geological Association, vol 87, 1976, p. 133
12. Douglas J. Futuyma, Science on Trial, New York: Pantheon Books, 1983. p. 197
13. Solly Zuckerman, Beyond The Ivory Tower, New York: Toplinger Publications, 1970, ss. 75.94; Charles E. Oxnard, "The Place of Australopithecines in Human Evolution: Grounds for Doubt", Nature, vol 258, p. 389
14. J. Rennie, "Darwin's Current Bulldog: Ernst Mayr", Scientific American, December 1992
15. Alan Walker, Science, vol. 207, 1980, p. 1103; A. J. Kelso, Physical Antropology, 1st ed., New York: J. B. Lipincott Co., 1970, s. 221; M. D. Leakey, Olduvai Gorge, vol. 3, Cambridge: Cambridge University Press, 1971, p. 272
16. Time, November 1996
17. S. J. Gould, Natural History, vol. 85, 1976, p. 30
18.. Solly Zuckerman, Beyond The Ivory Tower, p. 19
19. Richard Lewontin, "Billions and billions of demons", The New York Review of Books, 9 January, 1997, p. 28.
20. Malcolm Muggeridge, The End of Christendom, Grand Rapids: Eerdmans, 1980, p. 43